أحمد رمضان

انتحار فاشل

قصص

دار سيمكين كوم

انتحار فاشل

(مجموعة قصصية)

احمد رمضان

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع - دون موافقة كتابية - يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

الكتاب:
انتحار فاشل
المؤلف:
احمد رمضان
★★★
الغلاف:
محمد محمود
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

احمد رمضان

انتحار فاشل

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

المجرم

عدت من عملي متأخراً .. اشتريت بعض الأغراض قبل أن أقترب من الحارة التي أسكن بها .. تفاجئت بسيارة شرطة تسد مدخل الحارة .. انتشر حولها بعض العساكر لمنع الأهالي من التقدم .. خلف الحاجز الذي صنعه الجنود وقف كثير من الأهالى يتطلعون بفضول وتساؤل .. حاولت المرور موضحاً لهم أني من قاطني الحارة ولكنهم منعوني بحزم .. قالوا أن الأمر لن يستغرق سوى دقائق .. لم أجد مفراً من الاندساس بين الواقفين .. تلك ليست أول مرة يحدث فيها هذا الأمر؛ يتكرر كل فترة حين يأتون للقبض على شخص ما .. وعادة لا يستغرق الأمر وقتاً بالفعل

قتلني الفضول كما قتل القطة من قبل لمعرفة هدفهم تلك المرة، خاصة أن معظم السكان لم يكونوا على علم بالضحية - أو المجرم - الذين يسعون خلفه، والعساكر البسطاء لم يكن لديهم أدنى فكرة، ولم نستطع أن نستخرج منهم أي معلومة حتى بعد أن منحنا بعضهم عدد من السجائر وتقربنا منهم في الكلام

من المؤكد أنهم جاءوا للقبض على زاهر السياب .. ورث عن أبيه تجارة المخدرات ولكنه لم يرث عنه حرصه أو ذكائه .. لم تستطع الشرطة القبض على أبيه يوماً رغم نشاطه المعروف الذي امتد لسنوات .. زاهر مغرور وجرئ أكثر من اللازم .. والده اعتاد العمل في الخفاء وبحرص أكبر .. على عكس أبيه يتباهي زاهر بنفوذه بعد أن بسط سيطرته على المنطقة .. دخل في صراعات علنية كثيرة .. اكتسب العديد من الأعداء .. بعضهم من ذوي النفوذ .. من المؤكد أن أحدهم وشى به .. تمنيت أن يكون هو .. على الأقل تتطهر الحارة من إجرامه ونفوذ أتباعه .. ولكن صعب حقا أن يكون هو .. رغم غروره وأخطائه الكثيرة، لكنه ليس بتلك السذاجة ليقوم بتخزين بضاعته في منزله أو دكانه في الحارة .. أعلم بالتأكيد أنه يحتفظ بها في مخازن بعيدة ويجيد تصريفها بعيداً عن مكان إقامته، وعن محل الأقمشة الكبير الذي يتخذه كستار له .. كما أنه مسافر منذ ثلاثة أيام .. ازدادت حيرتي .. من يكون إذن

سمعت اسم عادل يسرى همساً بين الناس .. هل جاءوا للقبض على عادل .. أعترف أني شعرت بقليل من الشماتة .. يمتلك عادل محل أجهزة كهربائية في نهاية الحارة .. بدأ طريقه الخاص بشراء الأجهزة المسروقة ثم إعادة بيعها .. بعدها بات يتاجر في كل شئ .. مسروق طبعاً .. ذهب .. ساعات .. هواتف نقالة .. أدوات زينة .. ذمته باتت تتسع لأي بضاعة مجهولة المصدر .. شهرته بدأت بالتعرف على عزمي ..

أشهر هجام في المنطقة وأكثرهم خطورة .. يشتري منه كل ما تطوله يده في مغامراته الليلية .. ثم بدأ يوسع علاقاته .. تعرف على مزيد ممن اشتهروا بالقلوب الجريئة والأيدى الطويلة .. من النادر أن تجد لص منازل أو نشال في المنطقة لا يعرف عادل .. احتفظ بالمحل القديم كما هو دون تغيير درءاً للأنظار ولم يغادر الحارة .. قام بغعادة تجديد بيته القديم وصرف عليه الكثير .. من دخل بيته يحكي عن فخامته من الداخل .. وأولاده نقلهم من المدرسة القريبة المتهالكة إلى أرقى المدارس الخاصة .. يحتفظ بأمواله كلها داخل بيته ولا يضعها بالبنك .. وقفت على أطراف أصابع قدمي وتوجهت ببصري نحو محله في آخر الحارة .. لاحظت أنه مفتوح .. رأيت بعض العساكر يتمركزون في وسط الحارة بعيداً عنه .. من المستحيل أن يكون هو .. تأكدت ظنوني بعد أن ظهر بعد قليل ليقف أمام محله يستطلع الأمر.. سحب كرسياً من الداخل وجلس أمام محله بهدوء .. هززت رأسي في أسف .. وشعرت بقليل من خيبة الأمل

عصرت ذهني .. بحثت كثيراً في تاريخ حارتي الأسود .. استعرضت الأسماء فقفز إلى ذهنى اسم منها .. أعلم أن لو تفتح عمل الشيطان .. ولكن لو كان هو .. لأقمت حفلاً في الحارة .. عزمي المجاهد بالتأكيد .. أعتقد أنى لست الوحيد الذي سيحتفل بالتخلص منه .. لم يجتمع أهل الحارة منذ نشأتها على شئ أكثر من بغض عزمي المجاهد وتمنى الخلاص منه .. إجرامه فاق كل حدود .. مسجل خطر .. دخل السجن عدة مرات ولكنه كان يخرج منه سريعاً .. آخر مرة دخل السجن لشهرين .. ظننا أننا تخلصنا منه .. وزع بعض الأهالي الشربات ابتهاجاً بالمناسبة .. من سوء حظنا أن الانتخابات كانت قريبة .. أخلوا سبيله قبلها بأيام .. نجح مرشح الحكومة الذي سانده بالطبع واختفي منافسه بعدها بفترة .. عزمي مجرم صعب أن تصنفه، وربما ذلك مكمن خطورته .. لو استطاع الاكتفاء بنشاط واحد ربما عشنا معه بسلام .. متعدد المواهب حقاً .. هجام .. بلطجي .. نصاب .. موزع مخدرات .. قاتل .. موسوعة إجرام حية زاخرة تعيش وتتنفس بيننا .. بدأ حياته بالسطو على المنازل .. وعندما بدأت أعصابه تخذله بعد أن عرف طريق الإدمان .. بحث عن طريق أسهل .. الخطف .. اشترى دراجة وبدأ في استخدامها هو وأحد أعوانه في خطف حقائب السيدات وأحياناً مصاغهم .. ثم تعلم حمل السلاح وبدأ الخروج ليلاً للبحث عن ضحية منكوبة وتهديدها لإفراغها من كل ثمين بحوزتها .. إفراطه في المخدرات دفعه للمتاجرة بها أحياناً .. ثم القيام بدور البلطجي لمصلحة من يدفع له أكثر .. راقت له

اللعبة ففرض مبلغ شهري على كل أصحاب المحلات نظير حمايتهم، منه بالطبع.. ثم أصحاب البيوت .. جمع عصابة من الأوباش مثله فلم يستطع أهل الحارة مواجهته .. يستخدم أسلحته بخبرة جراح ماهر .. من يعارضه يحمل تذكاراً خالداً في وجهه أو جسمه حتى لا ينساه .. ولا بأس من وقت لآخر بجريمة قتل حتى يذكر الناس بسطوته .. دعوت المولى أن يكون هو حقاً .. من المؤكد أن كل هذه القوة جاءت للقبض عليه احتياطاً لخطورته .. استرحت لهذا الخاطر للحظات .. حتى تفاجئت بعزمي نفسه يقف ورائي .. لو تطلع إلى للحظة لرأي آثار الدهشة بوضوح على وجهي .. لم يفعل لحسن حظي .. اندس بين الواقفين ببساطة يسأل عما يحدث

شلت رؤية عزمي تفكيري للحظات .. عدت لاستعراض الصور ومراجعة الاحتمالات بحيرة أكبر .. هل جاءوا للقبض على أمين صاحب المخبز الوحيد في الحارة الذي يقوم بتهريب الدقيق المدعم تحت أعين الجميع لبيعه في السوق السوداء .. أم لعله محسن الميكانيكي هو الهدف بعد أن اشتكاه أحد زبائنه .. كلنا نعرف مهارته في سرقة قطع الغيار الأصلية للسيارات التي يقوم بإصلاحها واستبدالها بأخرى تجارية رخيصة .. هل الدور على زيزي الراقصة بعد أن فاحت رائحة زبائن آخر الليل لديها .. ربما عباس صاحب القهوة الذي يوصد أبوابها من الداخل ليلاً لتتحول إلى غرزة لتدخين الحشيش .. أحسست بدوار .. بدأت يدي تؤلمني من حمل الأغراض التي اشتريتها لفترة طويلة .. اللعنة .. أعياني التفكير .. لماذا أشغل نفسي كثيراً بمعرفة الاسم .. يد العدالة ستطول أحد اليوم على كل حال وستتخلص الحارة من أحد أسوأ قاطنيها .. وهذا هو ما يهمني .. صحيح أني صدمت لعدم القبض على عزمي .. ولكن لكل كلب يومه .. وربما استرحنا ممن هو أخطر منه

لحظات صمت مرت ثقيلة على الجميع قبل أن نرى حركة في الشارع .. اعتدل العساكر المرابضون في وسط الحارة .. هبط بعض الجنود من أحد البيوت هناك .. اثنان منهما يمسكان شخص ما بإحكام .. لم نتعرف على ملامحه من الأجساد التي كانت تعيق رؤيتنا ولكنهم كانوا يمسكونه بشكل يوحي بمدى خطورته .. بعدها بثوان هبط شخص ثان وثالث بنفس الطريقة .. قبضوا على ثلاثة إذن .. تمنيت أن يقبضوا على مجرم واحد فقبضوا على ثلاثة دفعة واحدة .. ابتهجت .. اقتربوا منا .. بعد عدة أمتار بانت ملامح المقبوض عليه بوضوح .. تحولت نظرات التساؤل إلى دهشة ثم سريعاً إلى استنكار .. وسط العساكر كان يمشي محمود بانكسار .. من المؤكد أن هناك خطأ ما .. محمود ابن الحاج حسين موظف الكهرباء .. الكل يشهد بأخلاقه

وسمعته الطيبة .. أحد القلائل الذين يسكنون الحارة ويتمتعون باحترام وثقة الجميع .. موظف بسيط في الحكومة أحسن تربية أولاده وعلمهم رغم متاعب الحياة .. لا نذكره إلا بالخير هو وأسرته البسيطة .. محمود يدرس في كلية الحقوق .. شاب ملتزم كما نعرفه .. لم يقدم يوماً على فعل خاطئ أو ارتكاب حماقة .. نعلم أنه موهوب ويكتب مقالات أحياناً في بعض الصحف الصغيرة، ويشارك في كثير من الفعاليات .. لمحنا الحاج حسين يخرج من المنزل خلف ابنه بينما يمنعه الجنود من الوصول إليه .. ثم والدته تلحق بزوجها خارج البيت رغم مرضها وهي تبكي ابنها الوحيد .. بسرعة حشروهم في مؤخرة السيارة .. شق العساكر طريقاً بين الناس يسمح بمرور عرباتهم .. لم نعلم إلا لاحقاً بعدها بأيام أنه متهم بالإخلال بالأمن العام هو وزملائه .. شارك في مظاهرة داخل الجامعة وكتب كلاماً جارحاً في أحد مقالاته .. هكذا علمنا من محاميه .. ولكنه لم يخبرنا لمن كان الكلام جارحاً .. انتهزوا فرصة وجوده في منزله هو واثنان من أصدقائه المشاركين في المظاهرات للقبض عليهم بعد أن أبلغ عنهم أحد المخبرين المتواجدين بصفة دائمة في الحارة .. ما زلت أشعر بمرارة كلما تذكرت المشهد يومها .. سيارة الشرطة تشق طريقها بسرعة بين الناس .. عزمي الهجام يقف خلف سيارة الشرطة المنطلقة بقوة .. يقلب كفيه في تعجب .. يتطلع إلى محمود المنزوي في ركن منها هو وزملائه .. يعلق بتأثر صائحاً بحكمته الخالدة: صحيح .. الحرام عمره ما يدوم

استعداد

لاحظ أنها نامت أكثر من المعتاد .. لفت الغطاء على وجهها بينما أحكمت وضع الوسادة فوق رأسها كالعادة فلم يظهر إلا القليل من جسدها الضئيل .. تردد للحظات أن يوقظها قبل موعد تناولها الحقنة اليومية .. ثم قرر أن يتركها لخمس دقائق أخرى فإن لم تنهض من تلقاء نفسها، بادر هو بإيقاظها

ذهب لإعداد كوب من قهوته الصباحية المعتادة .. تناوله ببطء وهو يشاهد النشرة .. سرح مع الأخبار بعد أن ارتفع ضغط دمه كالعادة من مشاهدتها .. عادة سيئة يقسم مراراً أن يقلع عنها ولكنه لا يفعل .. انتبه إلى أن مهلة الخمس دقائق طالت لتصبح ثلث ساعة .. نهض بسرعة واتجه إلى غرفتها .. وجد زوجته كما هي لم تتحرك وكأنها اتحدت مع السرير في كيان واحد مشترك .. تذكر أنها سهرت بالأمس تتألم من نوبة سعال انتباتها ونامت بصعوبة .. قرر أن يمنحها مهلة ثانية .. مهلة أخيرة ثم يوقظها قبل خروجه لصرف المعاش

دلف إلى حجرة نومهما .. منذ تزوج الأبناء وهي لا تنام فيها إلا نادراً .. تفضل أن تنام في غرفة ابنها الأكبر .. دائماً تحكم الغطاء حول نفسها بعد أن تقوم بتعديل صورة أبناءها التي تضعها على المنضدة الصغيرة بجوار السرير لتصبح في مواجهتها .. تحججت من فترة طويلة أن حجرة نومهما "بحري" وجسدها الضعيف لم يعد يتحمل برودتها في الشتاء خاصة بعد كوكتيل الأمراض الذي اجتاح جسدها من سنوات .. ضغط .. سكر .. وتصلب شرايين أجرت معه جراحة من شهر مضى ما زالت تتعافى من آثارها .. هزل جسمها وضعفت قواها ولكنها بعناد تصر أن تقوم بدورها دون راحة .. يعلم أنها تحن لأبناءها الذي تزوج آخرهم من شهرين وفارق عشها بشكل نهائي .. مع المرض وفراق الأبناء زادت عصبيتها في الفترة الأخيرة .. تذكر المشاجرة التي حدثت بينهما أمس .. ولكن الغريب أنه لم يعد يتذكر السبب .. سبب مختلف كل مرة وينتهي الشجار سريعاً .. تثور عليه ثم تفاجئه بعدها بلحظات وهي تحضر كوب الماء له وتذكره بتناول دوائه اليومي .. يعاني هو أيضاً من ضغط الدم ولكن ما زالت معاناته أقل بكثير مقارنة بمعاناتها

أمس أجهدت نفسها .. دعت الأولاد على الغداء وصممت أن تقوم وتشرف على كل شئ بنفسها رغم تحذيرات الطبيب .. كانت عصبية بشكل كبير .. هكذا دائماً تزداد عصبيتها عندما تدعو أحد إلى البيت .. ترغب أن يبدو كل شئ في أبهى صورة .. بعد

انصراف الأبناء اضطر للقيام بمهام التنظيف بعد أن شعرت بألم في قدميها لم تستطع معه أن تؤدي أي عمل .. رغم أنه نام قبلها ولكنه أدرك أنها لم تنم إلا قبل الفجر بقليل .. اعتادت أن تستيقظ مبكراً مهما سهرت فما الذي أخرها هكذا .. انتابه خاطر مزعج تسلل إلى عقله بخبث .. اقترب من سريرها فلم يلحظ صوت تنفسها العالي المعتاد .. قال في سره: معقول يكون حصل لها حاجة .. دي تبقى كارثة

غادر الحجرة بعد أن أقلقه الخاطر .. اتجه إلى الصالة وجلس على الأريكة .. يريد بعض الوقت للتفكير فقدرته على اتخاذ رد فعل سريع في المواقف الطارئة لم تعد كالسابق .. لو حدث شئ ما لها بالفعل .. كيف سيتصرف؟ .. سيحزن على شريكة عمره بالتأكيد ولكنه سيتمالك نفسه .. سيطلب الإسعاف فوراً .. وربما يستعين ببعض الجيران .. عليه أن يبدو هادئاً أمام الجميع رغم الكارثة .. رزيناً كعادته وكشخص هذبته السنين من فترة واختبرته بكل أشكال المصائب مراراً .. ماذا عن الأولاد .. من المؤكد أنه سيتصل بكل واحد منهم ولكن يجب أن يقوم بالأمر بمنتهى الحكمة .. سيتصل بالابن الأكبر أولاً ويطلعه على ما حدث بهدوء وبشكل مباشر.. سيحدثه بتعقل كرجل مسئول يعتمد عليه وسيخفف ذلك بالتأكيد من وقع الصدمة .. أما الابن الأصغر فمن المؤكد أنه في العمل الآن .. سيتصل بزوجته وهي ستتولى المهمة عنه .. يعلم أنها أقدر منه على نقل الخبر إليه بطريقتها الخاصة .. المشكله في ابنته .. عليه أن يكون هادئاً معها للغاية فهو يدرك أنها عاطفية وشخصيتها انفعالية إلى أبعد حد مثل أمها .. سيبلغها الأمر بالتدريج .. أمك مريضة .. الطبيب هنا .. تريد رؤيتك .. فكر ماذا سيفعل أمام أبنائه عندما يتوافدون إلى المنزل فزعاً .. يعلم مدى تعلقهم بأمهم .. يتخيل تأثير الموقف عليهم .. يراهم بعين خياله مصدومين مما حدث .. عيونهم كساها اللون الأحمر من البكاء وأطرافهم ترتجف من وقع الصدمة .. كبار هم ولكنهم ما زالوا صغاراً أمام المصائب وربما انهار أحدهم تحت وطأتها .. يجب أن يبدو أمامهم رابط الجأش مهما كان حزنه وألمه حتى يهدئ من روعهم .. عليه أن يظهر كقدوة لهم لو حدث الأمر حقا.. مثل تلك المواقف تحتاج إلى ثبات بالتأكيد .. خبراتهم بالمصائب قليلة بينما يمتلك هو رصيد من الخبرات يسعفه .. سيظل يواسيهم حتى يخفف عنهم ألم الفراق الصعب، وهو - عكس أبناؤه – رجل عسكري يتمتع بثبات انفعالي عال سيخدمه .. فكر لو حدث الأمر، سيكون مستعداً للتعامل معه بالتأكيد

مرت نصف ساعة أخرى وهو ما زال في مكانه يفكر .. انتبه وطرد تلك الخواطر السوداء من رأسه .. استغفر واستعوذ من شيطان يعبث بعقله وتفكيره .. دخل غرفة ابنه الأكبر ليوقظها بلطف فلاحظ أن زوجته كما هي لم تتحرك .. خطا للداخل فاجتاحه شعور بشئ غامض داخل الغرفة .. شئ لا يراه ولكنه أقلقه بشدة .. اقترب من سرير زوجته .. ناداها فلم ترد عليه .. نادى عليها أكثر من مرة فلم ترد .. مد يده وهز جسدها برفق دون استجابة منها .. سحب الغطاء وهزها بعنف دون نتيجة .. تحسس جسدها .. بارد على غير العادة .. فتح عينيها فحدق في فراغ بلا حياة .. احتضن يدها وأحكم قبضته على شرايين معصمها فلم يشعر بنبض الحياة يسري فيها .. أفلت ذراعها فتهاوت بلا مقاومة

كانت بالفعل قد ماتت

كل ما يتذكره الابن الأكبر أن أباه أتصل به وهو يصرخ بهلع قائلاً له أن أمه ماتت .. أما ابنته فتقول أنه أتصل بها وهو يبكي و يهذي ولم تستطع أن تستوعب شيئاً من كلامه سوى اسم أمها الذي ظل يردده عدة مرات بلا وعي .. يقول الجيران أنهم سمعوا صرخة فزع عالية ولأول مرة تقع أعينهم على العجوز الوقور يرتجف بهذا الشكل .. عندما أتى الأولاد كان قابعاً أمام جثمانها يحملق فيها بلا وعي وجسده ينتفض .. ظل الجميع لساعات يحاولون تهدئته دون جدوى حتى انهار فاقداً وعيه.. وطوال العزاء لم يستطع الخروج أو التحدث .. حبس نفسه داخل غرفته مكتفياً بالتحديق بذهول نحو السقف ومستمراً بالهذيان بكلمات غير مفهومة .. اضطروا لإحضار طبيب للكشف عليه بعد أن ساءت حالته فأخيرهم أنه يمر بأزمة عصبية شديدة فسرها بحالة الوفاة الصادمة لزوجته التي لم يكن مستعداً لها .. ورغم وجود أبناؤه بجواره لمساعدته والتخفيف عليه .. إلا أن حالته ساءت أكثر ولم يجدوا بداً في النهاية من أيداعه مصحة نفسية حتى يستعيد توازنه الذي فقده بسبب أزمة وفاة زوجته المفاجئة

الحارة

رجع سعيد بعد غربة استمرت سبع سنوات إلى حارته حيث نشأ .. تذكر آخر مرة غادرها فيها .. أقسم ساعتها أن لا يعود إليها أبداً .. ولكن للضرورة أحكام .. بعد كل تلك السنوات التي حافظ فيها على قسمه يضطر للرجوع إلى حارته القديمة ليشهد فرح أخته

لم يشأ أن يخطر أحد بموعد قدومه والذي تغير عدة مرات .. يشتاق بشدة لرؤية أهله رغم أنه يحرص منذ سفره على التواصل معهم كلما أتيحت له الفرصة .. يغلبه الشوق لرؤية أخته الوحيدة حقاً .. أخته التي تحمل مسئوليتها بعد وفاة والده فأغرقها بمشاعر أبوة لم يظن يوماً أنه يمتلكها .. تركها طفلة في بداية دراستها الثانوية وها هو الآن يعود ليشهد زفافها .. لم يصدق أن دورة الأيام كانت أسرع من حساباته وهو رجل لا يجيد أكثر من الحسابات .. يعجز عن استيعاب أن فرح أخته الصغيرة اليوم .. الطفلة التي كانت تعدو أمامه تلهو ببعض الحلوى من سنوات قليلة فقط، نضجت سريعا في غفلة منه لتتهادى اليوم بفستان الفرح .. هز رأسه مبتسماً بعدم تصديق .. تمنى فقط لو تم الزفاف خارج الحارة لعله يتجنب رؤية أهلها ولكن لم يكن الأمر بيده ..

أسرع الخطا وسط الحارة .. تحسس حلته الأنيقة غالية الثمن وحقيبة يده الوحيدة التي تحوي بعض الهدايا الثمينة .. سيبقى لعدة أيام فقط وسيعود بعدها بسرعة .. أعماله في الخارج لا تقبل التأجيل .. ولن يمكث إلا لمدة كافية تسمح له بالاطمئنان على أخته وأمه قبل أن يعود إلى عالم لم يعد ينتابه شعور بالراحة كثيراً خارجه ..

تطلع إلى الحارة شبة الخاوية .. وشوارعها الضيقة المتعرجة التي خلت وقتها من المارة .. يبدو وكأن الجميع في الفرح الآن .. تلك عادة الأفراح الشعبية كما عرفها منذ صغره .. الكل يترك أعماله ليشارك فيها

سار يتمهل وسط الدكاكين المغلقة تعاوده بعض الصور من الماضي .. صور تراكمت عليها أعوام طوال حتى ظن أنه نسيها .. تطلع حوله بضيق .. لا يبدو وكأن يد التغيير أتت بجديد على الحارة طوال المدة التي غاب فيها .. نفس الحارة القديمة بشوارعها المهملة لم يزدها مرورالزمن إلا خراباً بعد أن ترك آثاره على بعض أبنيتها .. مضى بتمهل يطالع المحلات المغلقة على جانبي الطريق .. ابتسم حانقاً وهو يتفحصها

مستعيداً بعض ذكرياته .. وتعاود ذاكرته رغماً عنه حكايات ومواقف قديمة ربطته بالمكان ..

على رأس الحارة .. يقبع **" مخبز الأمين "** .. صاحبه فتحي الأمين .. اسم على غير مسمى .. زفر أنفاسه بمرارة وهو يتذكر كيف كان يقف هنا بالساعات تحت نار الشمس الحارقة فقط ليبتاع بعض الخبز .. كم مرة تقاتل فيها لأن شخصاً تعدى على دوره في الطابور الطويل الذي يبدو وكأنه يمتد بلا نهاية .. أو أحداً داسه بالأقدام في طريقه فوق رؤوس الناس للمخبز .. يستعيد في مخيلته صورة تلك اللحظات وهو يصمد لاهث الأنفاس .. ملابسه متسخة والعرق الغزير ينساب من جسده بقوة بينما فتحي الأمين صاحب المخبز يقبع في الداخل ينفث دخان شيشته بهدوء وهو ينظر للأجساد المتدافعة دون مبالاة .. يقولون أنه يهرب الدقيق المدعوم إلى السوق السوداء ويكسب كثيراً .. لا يهتم سوى بالنقود وليذهب الناس إلى الجحيم .. أغمض عينيه وهو يسترجع تلك اللحظات المؤلمة وأسرع الخطى ..

أشاح بوجهه بعيداً حتى لا يتذكر المزيد .. شعور بالاشمئزاز تجاه حارته ينمو بداخله ليسيطر عليه .. والمرارة التي يشعر بها في حلقة الآن لا سبيل للتخلص منها .. تنبه إلى أنه توقف أمام محل **"عباس الحلاق"** .. هز رأسه في حنق .. كم مرة جاء هنا .. كان والده يأمره دوماً بالتردد على عباس صديقه دون غيره .. يتذكر كيف كان يلبي أوامره متأففاً .. عباس الكهل العملاق لا يجيد سوى قصة شعر واحدة يطبقها على كل الزبائن .. حاول كطفل ثم كمراهق أن يطلب منه القيام بعمل تسريحة حديثة مثل باقي زملائه .. ولكن عباس كان يستهزئ به ويصب لعناته على كل موضة جديدة ويتشبث بتسريحته المعهودة .. كل مرة يخرج من عنده لاعناً إياه .. عباس ثرثار ويتركه أحياناً على كرسى الحلاقة لفترة طويلة لينطلق للثرثرة مع صديق عابر أو لشراء بضاعة ينادي عليها بائع متجول مر بالمصادفة أمام المحل .. يتذكر كيف انقطعت الكهرباء ذات مرة واضطر للحلاقة تحت ضوء مصباح قديم .. وعندما تطلع في المرآه بعد عودة الكهرباء، كاد يبكي قهراً بعد أن رأى الجروح الصغيرة تعلو وجهه ورأسه .. لا ينسى يوم رسوبه في اختبار اللغة العربية في أحدى سنوات دراسته الأولى .. حمله أبوه إلى المحل قهراً وأمر عباس أن يحلق له شعره تماماً كعقاب له .. توسل الى عباس وقاومه ولكن الحلاق العملاق أمسكه بقوة وبدأ في عمله بلا رحمة .. لمدة شهر كامل بعدها لبث في البيت لا يجرؤ على الخروج ورؤية الشارع حتى لا

يعرض نفسه لسخرية زملائه .. يستذكر دروسه وهو يصب لعناته على الحلاق والدراسة معاً .. ولم يرسب بعدها أبداً

هز رأسه لعله ينسى تلك الذكريات .. واصل سيره .. عبر الحارة إلى اليسار .. لاحظ أكوام من القمامة ملقاة بإهمال بجوار مطعم **"صلاح الأدهم"** .. تساءل بتقزز.. متى يصيب التحضر هؤلاء الناس .. تذكر المطعم .. مطعم صغير يقف به صاحبه صلاح صباحاً مساءاً أمام موقد النار القديم ليعد أقراص الفلافل الساخنة والفول الذي طالما امتلئت به معدته دون أن يجد لهم بديلاً يناسب ضآلة مصروفه .. لا ينسى طعم الفلافل الساخنة التي تخرج من زيت تحول لونه للأسود من كثرة الاستخدام .. يأكلها بلا شهية ويجرع وراءها أكثر من كوب ماء ليتخلص من حرارتها التي تجثم على قلبه لفترة بعدها .. يتذكر حانقاً كم مرة وجد الطماطم فاسدة داخل الشطائر التي يشتريها في طريقه صباحاً للمدرسة، أو عندما يكثر عم صلاح من الملح كعادته على الطعام فيتحول إلى " فسيخ " لا يستطيع تذوقه ..

لا يدري لما تعاوده تلك الصور الآن .. ربما رؤية كل تلك الأماكن مرة أخرى تثير ذاكرته للعودة للماضي قسراً .. يسرع في المشي قليلاً .. يتجاوز محل "عم **عاشور الخياط"** .. كم مرة خاط هنا ملابسه .. تذكر آخر مرة طلب منه عمل بنطال .. وعندما انتهي كان ضيقاً لدرجة أنه لم يستطع ارتداءه .. طلب من الرجل العجوز تعديل المقاس .. ولكن الكهل أخذ وقتاً كبيراً حتى شعر بالندم لطلبه .. وعندما انتهى تفاجئ بالبنطال واسعاً جداً على جسده الضئيل .. لم يشأ العودة إليه مرة أخرى .. ورمى البنطال في خزانته دون أن يرتديه أبداً

تحسس حقيبة الهدايا .. نظر إلى ساعة يده الغالية .. قطرات من العرق تنساب منه .. سحب منديله المعطر وتوقف ليلتقط أنفاسه قليلاً .. ثم واصل طريقه .. يقترب من محل عم **"كامل البقال"** .. يدعو ربه أن يكون مغلقاً .. لطالما كره هذا الرجل .. عندما كان صغيراً اعتادت أمه أن تناديه يومياً عدة مرات لشراء أغراض من البقالة بينما هو منغمس تماماً في اللعب مع أصدقائه .. يترك اللعب ثائراً وهو يلعن كثرة الطلبات ويلعن معها عم كامل البقال .. لما لا تطلب منه أمه كل الطلبات مرة واحدة .. ولما لا يغلق عم كامل دكانه مبكراً ويريحه من التردد عليه طوال اليوم .. يتذكر يوم اشترى بعض الحليب من عنده .. وعندما توجه به للبيت اكتشفت أمه أنه فاسد .. غضبت وأمرته أن يذهب ويسكبه في وجه " كامل الغشاش " كما صرخت في وجهه

.. كان صغيراً وخائفاً .. ذهب وسكب اللبن بعيداً واشترى غيره من مصروفه من دكان بعيد .. لا ينسى محمود ابن عم كامل الذي زامله طويلاً في المدرسة .. كان لا يحبه ولكنه يضطر لاستذكار دروسه معه لأنهم جيران .. استراح بعدما نجح هو في الثانوية بينما رسب محمود .. يمر من أمام دكان عم كامل .. الدكان مغلق وإن أبقى صاحبه بعض المصابيح مضاءة أمام المحل كعادته .. يتنفس الصعداء .. يسرع الخطى وهو يلهث نحو بيته .. ينعطف يساراً .. يقابله دكان عم **"جميل"** بائع العطور .. يشتهر عم جميل بتقليد العطور الغالية وبيعها لأهالى الحارة بثمن رخيص .. كيف ينسى يوم اشترى زجاجة عطر من عنده واستعملها .. في المساء ظهرت بقع حمراء على رقبته ويديه .. لم يكن يعلم أن لديه حساسية من العطور .. واضطر للذهاب للطبيب

لعن الحارة في سره .. وكل ما يمت إليها بصلة .. انعطف يميناً .. وقع بصره على دكان**"حمادة العجلاتي"** .. تطلع للمحل بغضب لم يستطع كبحه .. عندما كبر وبات ركوب دراجته الصغيرة أمراً محرجاً أمام زملائه، ولم يستطع والده شراء دراجة جديدة له، بدأ يعتاد المجئ هنا لاستئجار الدراجات .. تذكر عندما استأجر دراجة لساعة واحدة فقط ليلعب مع أصدقائه .. لم يشعر بالوقت وتأخر .. فذهب عم حمادة إلى أبيه ليشكوه .. ليلتها عاقبه والده بشدة .. ولم يكتفي حمادة بذلك بل استولى منه على قيمة إيجار ساعة أخرى على الرغم من أنه لم يتأخر سوى لدقائق معدودة ..

ها هو يقترب من بيته .. يراه من بعيد .. يتنفس بارتياح .. يتوقف أمام آخر محل قبل البيت .. محل **"رشدي الساعاتي"** .. المحل مغلق أيضاً .. ما زال يتذكرذلك اليوم وهو يلهو بالكرة مع أصدقائه أمام بيته .. تملكه الحماس بقوة أثناء المباراة .. الفريقين متعادلان ومن يحرز هدفاً أولاً يفوز بالمباراة .. استلم الكرة بمهارة من صالح زميله وسددها بقوة .. أحرز هدفاً جميلاً أنهى المباراة لفريقه فقفز فرحاً .. لكن الكرة كانت قوية لدرجة أنها طارت بعيداً وحطمت زجاج محل رشدي الساعاتي .. ظل لشهرين بعدها يدفع من مصروفه الصغير ثمناً للزجاج المكسور بعد أن اشتكى عم رشدي لوالده

لطالما كره هذه الحارة .. طلب كثيرا من والدته أن ترحل عنها إلى مكان جديد ولكنها تمسكت ببيتها القديم .. والأدهى أنها أصرت على إقامة حفل زفاف أخته وسط المكان وأمام بيتهما القديم رغم اعتراضه الشديد .. لم يرغب بالقدوم إلى هنا .. سيؤدي

واجبه تجاه أخته الوحيدة .. يطمئن عليها ثم يغادر الحارة سريعاً .. يتمنى لو كان بمقدوره ألا يقابل أحد من أهلها، ولكن لا مفر من ذلك .. كانت أمه تستحثه على المجئ مبكراً .. لم ينس أنه رجل البيت بعد وفاة والده .. أراد أن يساعدها في تحمل مشقة الفرح ولكن ظروف عمله لم تسمح له .. وتفهمت أمه ذلك

أخيراً يقترب من البيت .. الأنوار المتلألأة تستقبله .. تملأ المكان بينما فرش سجاد أحمر على الطريق .. عندما اقترب أكثر لم يجد بداً من التوقف .. اتسعت عينيه في ذهول .. توقف مبهوراً يطالع ما حوله بدهشة لم يستطع أن يخفيها .. كان يتوقع فرحاً صغيراً .. ولكنه تفاجئ بفرح كبير لم ير مثله من قبل في الحارة .. انتشرت باقات الورد في كل ركن من الحارة .. الكراسي في كل مكان .. المسرح الكبير يسد الحارة بأكملها بينما سماعات ضخمة انتشرت من حوله .. الأنوار تغطي بيته القديم من الأرض وحتى سطح البيت وتمتد لتغطى بيوت كثيرة حوله .. ما أن رآه بعض الحاضرين حتى اندفعوا للترحيب به .. هرع أصدقائه القدامى لاحتضانه .. لم يتوقع استقبالاً دافئاً كهذا بعد طول تغيبه عن الحارة وأهلها .. رد التحية بود بينما يحاول شق طريقه بصعوبه نحو بيته .. العروس ما زالت في البيت لم تغادره .. مراسم الحفل لم تبدأ بعد .. يرفع بصره للسماء حمداً أنه أتى في الوقت المناسب .. يسرع إلى البيت بصعوبة .. يرتقى الدرج بسرعة .. أضواء الفرح تمتد للداخل حيث اجتمعت بعض النساء داخل البيت للغناء بمرح .. تسرع النساء بالخروج عند علمهن بقدومه .. تستقبله أمه على الباب بشوق ما أن يتناهي إلى سمعها نبأ وصوله .. ما أن يراها حتى يرتمى في أحضانها ويغيب عن الزمن لبرهة .. تندفع الدموع من عينيها وهو بين يديها .. يقبل رأسها ثم يستسلم لأحضانها الحارة مرة أخرى، يتمنى أن يتوقف الزمن ليبقى هكذا للأبد .. تربت على كتفه بحنان .. تتمالك نفسها فتمسح دموعها .. تمسك بيديه وهي تبتسم له باشتياق .. تطمئن عليه .. تقوده بحنان إلى الداخل .. إلى حيث غرفة أخته .. طرق الباب وانساب للداخل بخفة .. خرجت بعض الصديقات ممن بقين بجوار العروسة لتزيينها .. ما أن وقع بصره عليها حتى تسمر في مكانه .. لم يصدق عينيه .. صغيرته أصبحت عروسة حقاً يتوج جمالها فستان أبيض رائع .. اقترب منها في ذهول .. منع الدموع بصعوبة أن تنساب من عينيه .. بينما انسابت الدموع من عينيها .. تذكر أنها وعدته أن لا تزف إلى عريسها إلا وهو بجانبها .. لن تقبل أن تدع أحد آخر يمسك بيديها ليقودها إلى حياة جديدة إلا هو .. ارتمت في أحضانه فقبل

رأسها في شوق .. ربت على خدها بحنان ثم أسرع بالخروج قبل أن تغلبه مشاعره تاركاً لها المجال لإكمال زينتها ..

أصوات الموسيقى تعلو من الخارج .. يتقدم إلى الشرفة ويتطلع منها إلى الحارة بينما تسرع أخته لتعديل زينتها .. يشعر بأمه بجانبه .. تتطلع معه للحركة التي تموج بالشارع .. يحتضنها بيده بدفء، يهمس في أذنها بعد برهة "لم أتوقع فرحاً كهذا" .. تربت على يده برفق "أهل الحارة لم يتركونا للحظة واحدة .. تولوا كل شئ .. أحبوا والدك حقاً وأقسموا أن يقيموا فرح لابنته يليق بمحبتهم .. ويعوض غيابه "..

تنفس بعمق وهو يشرف على الحارة ببصره .. يبدو الجميع في حركة مستمرة لإنهاء ترتيبات الفرح .. من بعيد يقف علي الأمين وهو يحمل مجموعة من الكراسي ويرتبها بينما يساعده عباس الحلاق وقد تقوس ظهره تحت ثقل كرسى كبير يحمله .. يتذكر سعيد عندما مرض والده أصر علي الأمين أن يبعث دوماً بالخبز إلى البيت كل صباح مع أحد صبيانه، وعباس الحلاق الذي وقف دائماً بجانب والده في مرضه ولازمه في المستشفى لحظة وفاته .. يشاهد عاشور الخياط بجلبابه الأبيض وعباءته الحجازية التي لا يرتديها إلا في المناسبات يقف لاستقبال المهنئين .. الكل يحب هذا الرجل .. يعتبرونه كبير الحارة لسنه ووقاره .. عاشور لم يخرج من بيته لفترة بسبب مرضه .. هكذا كان يسمع، ولكنه يتحامل الآن على نفسه ليشارك الجميع الفرحة .. يلمح عم كامل البقال وابنه محمود – زميل دراسته القديم – في نهاية الحارة يقومان بنقل صناديق المشروبات بهمة ونشاط تمهيداً لتوزيعها على المدعوين .. لا ينسى سعيد يوم نجح في الثانوية .. كان أول من عرف بالنتيجة عم كامل بعد أن توجه للمدرسة لمعرفة نتيجة ابنه .. استقبله في الحارة بالترحاب يومها .. احتضنه مهنئاً إياه بدفء وفخر وكأنه والده .. لم ينسى سعيد ذلك الحضن أبداً .. وعلى الرغم من أن محمود ابنه قد رسب .. لكن هذا لم يمنعه من أن يقوم بتوزيع المشروبات على الحارة كلها احتفالاً بنجاحه .. احتفال صادق عفوي لم ينسى أثره إلى الآن .. عم جميل يقف من بعيد يرتب باقات الورد العملاقة .. عندما سافر سعيد أصر عم جميل أن يوصله للمطار بسيارته الصغيرة على الرغم من أن ميعاد طائرته كان بعد منتصف الليل وهو ينام مبكراً، وظل في المطار حتى اطمئن عليه .. في البيت المقابل لمح صلاح الأدهم في أحدى الشرفات يقوم بتعليق بعض لمبات الإضاءة .. يوازن نفسه على سور الشرفة حتى لا يقع .. تذكر ليالي رمضان عندما كان يغدو قبل الفجر لشراء الفول الساخن للسحور .. اعتاد صلاح أن يلبي طلبه أولاً على الرغم من كثرة الزبائن

إكراماً لوالده .. وكان يكثر من الطحينية على الفول لأنه يعلم أن سعيد يعشقها .. وقبل آذان المغرب يهرع للمسجد كعادته لتوزيع التمر والمشروبات على الصائمين وكان سعيد يساعده أحياناً بحماس .. تبدأ الموسيقى في العزف بصخب .. وصل العريس على الأرجح .. على المسرح حمادة العجلاتي يختبر الميكروفون والسماعات .. يتأكد أن كل شئ سليم .. لا ينسى يوم أن استأجر دراجه منه، اندفع يسابق زملائه بحماس واختل توازنه فوقع وانساب الدم من أنفه .. حمادة كان أول من هرع إليه .. لم يهتم بالدراجة التي تحطمت .. حمله وتوجه به مسرعاً إلى العيادة في الحارة المجاورة ولم يعد به إلى بيته إلا بعد أن اطمئن عليه .. تقطع أمه شريط ذكرياته .. حان موعد الزفاف .. يتقدم إلى أخته .. تتأبط ذراعه ليزفها إلى عريسها .. يهبطان الدرج ببطء بينما الموسيقى تتصاعد في الخارج .. يخرجان للحارة ويده في يدها .. تعلو الزغاريد ويرقص البعض .. رشدي الساعاتى يطلق عدداً من الأعيرة النارية فتطغى على صوت الموسيقى وهو يرقص احتفالاً .. يمشيان ببطء بينما تزفهما الفرقة الموسيقية من البيت وحتى المسرح الكبير الذي توسط الشارع .. أهل الحارة يشكلون دائرة حول سعيد الذي وقف في وسطها .. ينظر إلى الفرح وإلى أهل الحارة الذين اندمج بعضهم في الرقص بمرح بينما وقف آخرون يصفقون بحماس .. يتطلع سعيد إلى كل تلك الوجوه الباسمة .. ينتابه شعور ما بداخله .. شعور مفاجئ يجتاحه فيستسلم له .. يقف وسط الحشد الصاخب حوله يسمح لانفعالات شتى أن تسيطر عليه .. يبتسم لأول مرة منذ وصوله إلى الحارة .. ولأول مرة منذ سبع سنوات كاملة أيضاً .. يشعر سعيد بالأمان ..

دائرة الحرامية

أنهى صابر عمله وتوجه بسرعة نحو السوق لشراء احتياجات المنزل قبل عودة الأولاد من مدارسهم .. بدأ بشراء الخضار من المحل القريب من منزله .. رغم ضعف جودة المعروض، تفاجئ بزيادة الأسعار .. سأل البائع المتجهم عن السبب فلم يجبه في البداية قبل أن يرد عليه بنفاذ صبر بأن كل الأسعار ارتفعت وأن "السوق عرض وطلب" .. الحجة التاريخية المعتادة التي طالما سمعها .. وفقاً للمبدأ نفسه يجب أن تهبط أسعار بعض السلع من وقت لآخر ولكن الأسعارالمجنونة لدى هؤلاء التجار لا تعرف سوى طريقاً واحداً .. للأعلى فقط .. هكذا قال صابر لنفسه .. انتهى فحمل الأغراض غاضباً .. يعلم أن البائع يستغله نظراً لعدم وجود محلات قريبة .. لم يعد هناك خير .. هكذا تمتم لنفسه وهو يسرع بالعودة إلى منزله .. بينما وقف البائع الضخم يلاحقه بنظراته وهو ينفث دخان سيجارته بلا مبالاة

أغلق سعيد محله مبكرا، لديه موعد مع الطبيب .. تلك الكحة اللعينة لا تفارقه من فترة، تكاد تمزق أضلاعه وتعجزه عن النوم .. ربما بسبب إفراطه في التدخين رغم أنه توقف من أسبوع تقريباً عن السهر مع أصدقائه في المقهى وتدخين الشيشة .. توجه إلى الطبيب بتثاقل .. العيادة مزدحمة كالعادة .. دلف إلى الداخل بجسده الضخم، تطلع إلى الكراسي القليلة المتهالكة والجدران التي أكلتها رطوبة قديمة .. عيادة متواضعة لا تتناسب مع شهرة الطبيب .. انتظر لساعات بصبر مكبوت .. عندما حان دوره أخيراً تفاجئ بارتفاع قيمة الكشف .. كان هنا من أسبوعين فقط عندما وصف له الطبيب دواءاً لم يفلح في تخفيف حدة الكحة لديه .. دفع مضطراً قيمة الكشف المضاعف متسائلاً عن السبب في زيادتها بتلك الصورة الفجة .. فحصه الطبيب للمرة الثانية ليطلب منه إجراء بعض الأشعة والتحاليل .. أوصاه بمركز أشعة بعيد رغم وجود أكثر من مركز قريب من العيادة .. يسمع أنه يتقاضى نسبة عن كل "زبون" يرسله إلى هناك .. انتهى فخرج حانقا بعد أن وصف له الطبيب دوائاً مهدئاً .. يرغب في علاج لحالته وليس عقارا مهدئاً يمنحه فقط شعور مؤقت بالراحة ولا يقضي على المرض .. ما زاد من حنقه أنه لم يمكث لدى الطبيب أكثر من ثلاثة دقائق بعد ساعات من الانتظار ليسرع الطبيب بعدها في استقبال زبونه التالي

قبل منتصف الليل أنهى الممرض تنظيف العيادة .. جلس الطبيب مرهقاً يراجع إيراد اليوم .. عاد لمنزله متأخراً .. ما زالت زوجته مستيقظة بينما نام الأولاد .. تناول عشاءه وحيداً كالعادة .. طلبت منه زوجته مصروف البيت وهو يدلف للفراش .. ناولها المبلغ المعتاد وهو بين اليقظة والنوم .. تطلعت إليه للحظة قبل أن تطلب زيادة .. سألها عن السبب فأخبرته ببساطة بأن معلم الدروس الخصوصية لأولاده قرر رفع قيمة الحصص .. تساءل محتجاً عن سبب الزيادة المفاجئة .. هزت كتفيها لترد أن كل المعلمين قاموا بالأمر نفسه .. اللعنة .. أولاده يعتمدون بشكل كبير على تلك الدروس الخاصة .. لا وقت لديه لمساعدة أولاده في الاستذكار أو مراجعة دروسهم وواجباتهم التي لا تنتهي .. العيادة تستهلك كل وقته بالإضافة إلى عمل المستشفي الصباحي المرهق .. رغم اهتمامه بالمال إلا أنه يدرك جيدا أن أولاده هم استثماره الحقيقي .. ولهذا لا يبخل عليهم .. ألحقهم بأفضل المدارس الخاصة طمعاً في تعليم أفضل .. ولكن بيته يزدحم دوما بمعلمين من كل المواد ليلتهموا جزءاً كبيراً من دخله رغم ذلك .. تساءل بحنق .. لما لا يقوم المعلمين بدورهم على أكمل وجه داخل مدارسهم .. هو نفسه لم يأخذ درساً في حياته .. وأولاده أذكى منه .. لما لا تكفيهم دروس المدرسة إذن .. فكر لوهلة أن يرفض ولكنه تراجع .. تنهد في ضيق .. لن يرضي طموحه سوى تفوق أبنائه مهما دفع .. حلمه أن يراهم أطباء مثله .. ناول زوجته الزيادة حانقاً .. لا يحب أن يستغله الناس .. أثار الموقف بأكمله غيظه لدرجة كبيرة .. ورغم إرهاقه لم يستطع النوم

أنهى المعلم الدرس .. تطلع في ساعته .. ناولته زوجة الطبيب الثمن .. تأكد أنها لم تنسى الزيادة التي طلبها .. غادر مسرعاً بعد أن دس المبلغ في جيبه .. لم يعد لديه دروس أخرى اليوم ولكنه يحتاج للذهاب إلى ورشة الميكانيكي لاستلام سيارته التي تعرضت لعطل مفاجئ .. وقف طويلاً في انتظار تاكسي .. يشعر بالضيق .. لا يستطيع الاستغناء عن سيارته .. قدميه التي يسير عليها متنقلاً من مكان لآخر للوفاء بجدول دروسه اليومي المزدحم .. بدونها يضيع وقت طويل في التنقل هو في أمس الحاجة إليه .. بمجرد أن وصل حتى استفسر من عادل الميكانيكي عن سبب الخلل .. أجابه عادل بكثير من المصطلحات الفنية المعقدة فهز رأسه وهو يسمعها دون أن يفهم معناها .. متأكد هو أن الخلل طفيف فالسيارة حديثة ولكن تلك هي عادة كل الحرفيين .. يضخمون المشكلة طمعاً في مبلغ أكبر .. أخبره عادل أنه اضطر لتبديل أحد قطع

المحرك بقطعة جديدة تكلفتها غالية .. للأسف ليس لديه خبرة كافية في التعامل مع السيارات للرد على هذا المحتال .. يدرك أن سيارته جديدة ولا تحتاج لأي قطع غيار وخاصة بالنسبة لمحركها .. ولكنه مجبر على مسايرته .. البديل هو نقاش سيخسره حتماً نظراً لقلة خبرته .. دفع إليه بالمبلغ الذي طلبه ساخطاً .. مبلغ كبير حقاً لم يتوقعه .. استلم سيارته فلاحظ أنها متسخة من الداخل .. هذا الوغد استعملها بالتأكيد فكتم غيظه .. انطلق بها لاعناً بينما وقف عادل يودعه بهدوء وهو يمسك قطعة قماش ضاع لونها يمسح يديه بها مما علق بها من شحم

اغتسل جيداً .. يتنظر اليوم بفارغ الصبر .. نهاية الأسبوع .. يغلق ورشته ويتجه إلى قريته البعيدة .. منذ جاء إلى المدينة من سنوات طويلة وهو يحرص على قضاء يوم العطلة وسط أهله .. هناك فقط يشعر بالراحة .. لولا الحاجة واتساع منافذ الرزق في المدينة ما فكر في ترك قريته .. كما أنه يشتاق لرؤية خطيبته .. ثلاث سنوات من الخطوبة مرت سريعة .. ابتسم عندما تذكر أن أسابيع قليلة فقط تفصله عن عرسه .. أخيراً انتهى من تشطيب بيته الجديد الذي التهم معظم دخله .. ثلاث سنوات ارتفعت فيها أسعار المواد وأجور الحرفيين أكثر من مرة حتى ظن أنه لن ينتهي منه .. " هانت " هكذا قالها لنفسه .. توجه إلى المحطة بعد أن ابتاع بعض الهدايا .. الجو ممطر اليوم والوقت متأخر ولكن لن يمنعه شئ عن العودة .. لا يريد الانتظار للصباح حتى لا يضيع وقتاً أطول .. قابله زحام شديد على المحطة .. وعربات متهالكة تتراص كأحجار نرد قديمة .. وجد مكاناً خالياً بصعوبة بعد أن انتظر طويلاً .. السيارة لا تتسع إلا لعشرة أشخاص ولكنهم يكدسون بها أربع عشر كائنا آدمياً يتنفس .. مهما سافر على هذا الطريق لا يصل إلى بلدته إلا بعد أن تتحطم أضلاعه من كثرة المطبات .. والأسوأ منها رعونة السائق الذي يتصيدها وكأن له جائزة على كل مطب يعبره بتهور .. في منتصف الطريق أخرج عادل الأجرة المعتادة .. تنبه إلى صوت السائق الذي طلب منهم بحزم مضاعفة الأجرة متحججاً بأن اليوم زحام وعدد السيارات قليل .. سرت همهمة اعتراض بين الركاب ولكنها لم تعلو لتصبح مسموعة .. نغمة تتكرر كل مرة في أجازة نهاية الأسبوع .. يستغلون حاجة الركاب فتتضاعف الأجرة وفقاً لأهوائهم .. تذكر آخر مرة اعترض فيها الركاب على تلك الزيادة غير المبررة .. أخرج السائق سلسلة معدنية ضخمة من تحت مقعده معطياً للركاب أحد خيارين كلاهما مر .. أما الدفع .. أو مغادرة السيارة في منتصف الطريق .. نزل

بعض الركاب دون افتعال شجار معروف نهايته مع سائق شبه فاقد للوعي والعقل .. هبط معهم .. انتظر وسط الحقول لساعات حتى سمع آذان الفجر من مسجد قريب .. لم تسعفه إلا عربة نقل مخصصة لنقل المواشى في الصباح .. عليه أن يتغاضى اليوم عن الاحتجاج منعاً لتكرار التجربة الأليمة .. كما أن الجو ممطر والبرد يتسلل إلى أطرافه .. ما يغيظه أن الموقف نفسه سيتكرر عند العودة وسيدفع مرغماً .. لصوص أولئك الذين يستغلون حاجة الناس بتلك الصورة المهينة .. استمرت الرحلة لساعة قبل أن تلفظهم السيارة على الطريق، انطلق بعدها السائق مخلفاً وراءه سحابة دخان داكنة من عادم سيارته المتهالكة مسبباً لبعضهم أزمة سعال حادة

أسرع السائق إلى منزله طلباً للراحة .. ورديته الأخيرة استمرت خمسة عشر ساعة كاملة استعان خلالها بعدد هائل من أكواب الشاي والسجائر وبعض "البرشام" صناعة محلية .. عادة لا يعمل كل هذا الوقت ولكن اليوم نهاية الأسبوع والربح مضاعف .. استقبلته زوجته بفتور بينما لم يستيقظ أولاده بعد .. وضع رأسه على الوسادة ونام بعمق قبل أن تيقظه زوجته بعنف بعدها بأقل من ساعتين .. انتفض فزعاً .. فتح عينيه بتثاقل ونظر للوهلة الأولى إلى الكائن الذي يحاول تنبيهه دون أن يتعرف عليه .. ذكرته بأنه هو الذي طلب منها أن توقظه بعد ساعتين .. تطلع إلى ساعة يده بعين واحدة .. موعد ورديتة الثانية .. اليوم حركة المسافرين كبيرة نظراً لنهاية الأسبوع والمكسب أكبر .. ارتدى ملابسه وهو يترنح من سكرة الاستيقاظ المفاجئ من نوم عميق .. فتح دولابه ليسحب مبلغاً كبيراً من المال .. كل ما جمعه خلال العامين الماضيين .. اليوم يكتمل مقدم السيارة الجديدة التي طالما حلم بها .. سيارة حديثة تنقله إلى مستوى السائقين الكبار بدلاً من تلك السيارة الأثرية التي يقودها والتي أنفق كثيراً على صيانتها بلا فائدة .. ينوي أن يتوجه اليوم بعد ورديته إلى تاجر السيارات لدفع المقدم .. لم تتاح له الفرصة لرؤية أولاده .. أو تناول أي طعام .. ركب السيارة وأدار المحرك الذي لم يستجيب سوى في المرة الرابعة .. انطلق في طريقه شبه واعي .. بعد ست ساعات أخرى من الدوران بين القرية والمدينة .. أحصى إيراده .. وانطلق سريعا نحو معرض السيارات

مرهقا وصل إلى هناك .. متلهفاً لتحقيق حلمه الذي ظل لسنوات يكدح على أمل تحقيقه .. صاحب المعرض مشغول فوقف للحظات يملي عينيه بمنظر السيارة بهيكلها

اللامع الذي تنعكس عليه أضواء المعرض .. سينهي الإجراءات ثم يتوجه بها غداً إلى منزله بعد أن يمر على محل ورد يعرفه جيداً لتزيينها .. عروس جديدة لها واجب الترحيب .. عروس مهرها غال اقتطعه من وقته وصحته وقوت أولاده .. قطع تدفق أفكاره صوت صاحب المعرض الأجش يرحب به .. قدم له المبلغ متحمساً .. ارتبك صاحب المعرض قليلاً .. أخبره أن أسعار السيارات زادت وارتفع معها بالتالي مقدم السيارة التي يحتكر توكيلها .. طلب منه بأسف مبلغ أكبر .. أحس السائق بطعنة تجهض أحلامه .. ظل لفترة يحدق في وجه صاحب المعرض دون أن ينطق .. لما زادت الأسعار بهذا الشكل .. كان هنا من أسابيع معدودة فقط .. كيف توحشت لهذا الحد خلال تلك الفترة الزمنية الضئيلة .. لملم نقوده وغادر المعرض يجر وراءه أذيال خيبة أحلامه .. ما زال على الثور العودة لجر الساقية لفترة أطول حتى يستطيع أن يفدي نفسه .. غادر المعرض منكس الرأس يرقبه صاحب المعرض وهو في طريقه للخارج بلا اهتمام

لم يطق الحر الشديد داخل المكتب .. انتظر طويلاً .. تطلع بنفاذ صبر إلى الملفات المكدسة فوق المكاتب .. عاجله الساعي بكوب من القهوة متأملاً إكرامية كبيرة من العميل الذي يعرفه جيداً .. أخبره بتودد أن صابر – الموظف المسئول - على وشك الوصول .. لديه اجتماع هام سينتهي بعد لحظات .. تطلع تاجر السيارات إلى ساعته .. أعاد تفحص الأوراق التي جاء بها .. أو التي جاءت به إلى هذا المكتب .. آخر صفقاته .. سيارات مستوردة من الخارج لمعرضه أوقفوها لنقص الأوراق .. قالوا أنها مجهولة المصدر .. مر بتلك المواقف من قبل ويعرف كيفية التعامل معها .. كان يعرف الموظف السابق ولكنه رحل بتهمة الرشوة .. لا يعرف الموظف الجديد .. سجله نظيف كما يقولون ولكن لا بأس من المحاولة .. قلبه معلق بالصفقة لعلها تنقذه من تعثر مالي يهدده .. رشف بتوتر من فنجان القهوة سئ المذاق وهو يفكر فيما سيقوله .. متمنياً أن ينتهي الموضوع كما يريد مهما كلفه

أنهى صابر الاجتماع وتوجه إلى مكتبه .. يشعر بالإرهاق اليوم .. اضطر إلى الذهاب إلى العمل مشياً بعد أن استيقظ متأخراً فلم يستطع اللحاق بأتوبيس المصلحة .. والنقود القليلة في جيبه لا تسمح له بترف ركوب التاكسي .. دلف إلى المكتب يحمل الملفات الثقيلة بين يديه .. تفاجئ برؤية شخص يجلس مقابل مكتبه .. رجل ضخم يرتدى حلة

غالية ويمسك برشاقة بفنجان القهوة .. جلس على مقعده وتطلع للرجل من تحت زجاج نظارته السميكة .. تحرك الرجل الضخم ما أن رآه .. قدم له نفسه بصوت أجش .. ناوله الملف الذي يمسكه بلا كلام .. قلب صابر في الأوراق قليلاً قبل أن يعيدها مرة أخرى إلى الرجل مؤكدا أن الأوراق غير مكتملة .. ابتسم التاجر ابتسامة كبيرة مصطنعة .. تلفت حوله للتأكد من عدم وجود أحد .. لمح الساعي يقف خارج الغرفة ليمنع أي عميل من مقاطعتهم .. خاطبه بلطف بأنه يعتمد عليه خاصة أن الأوراق تخص صفقة هامة يقوم بها، ويجب إنهاء الأوراق في أسرع وقت تحسباً لخسارة مبلغ كبير من المال بسبب غرامات التأخير .. أكد بصوت منخفض أن المسألة لا تحتاج سوى إلى توقيعه .. نهض بعدها من مكانه فدار حول المكتب .. أخرج ظرفاً صغيراً مكتظاً ودسه بحرص في درج مكتبه وحرص على أن يكون طرفه مفتوحاً .. نظر صابر إلى كومة الأوراق التي انبثقت من المظروف وهو ينقل بصره بينها وبين التاجر الذي عاد إلى مقعده يدخن بهدوء وكأنه لم يفعل شيئاً .. دخل الساعى فارتبك صابر قليلاً ولكن التاجر أشار إليه بالانصراف فأطاعه بسرعة .. الرجل ذو نفوذ هنا إذن وتلك ليست أول مرة .. انشغل التاجر بالرد على مكالمة طارئة مما منح صابر بضع لحظات يتمناها ويحتاجها حقاً لإعادة تفكيره المشوش .. تلك أول سابقة يتعرض لها منذ أن ترقى وانتقل إلى المكتب الحالي .. يدرك أن بوسعه إنهاء الإجراءات بجرة قلم منه .. تطلع نحو التاجر لبرهه .. ذلك المغرور لن يوقفه شئ .. يعرف هدفه بالتأكيد ويمكنه إنهاء الإجراءات إذا أصرعلى الرفض لدى مديره أو حتى من هو أعلى منه .. فكر في أولاده وزوجته .. نظر إلى ملابسه الرثة .. تذكر راتبه الهزيل المفروض عليه مواجهة غير متكافئة مع أسعار تتوحش كل يوم بلا منطق .. معركة خاسرة يدفع ثمنها أولاده .. وتسحق كرامته يومياً .. دائرة ملعونة تحكم حلقاتها حول كل شريف مثله ولا تعرف الرحمة لكل من هو خارجها .. والحل الوحيد حقا هو الانضمام إليها .. وتساءل وهو يلقي نظرة أخيرة إلى النقود .. طوق النجاة من الدوامة التي تغرقه .. هل يمتلك حقا الشجاعة الكافية كي يصبح أخيراً جزءاً من تلك الدائرة .. و ..

أنهى التاجر مكالمته سريعا بينما كان صابر يلقى على النقود نظرة أكثر استسلاما

حفلة عيد ميلاد

تبنهت من إغفاءة قصيرة مقلقة .. نهضت بصعوبة رغم آلامها .. تستند على حافة السرير حتى تتمكن من القيام .. وقفت لثوان ثابتة في مكانها عاجزة عن الحركة قبل أن تستجمع قواها وتتحرك للأمام ببطء وثبات .. تخرج إلى الصالة الكبيرة .. ترمي نفسها بوهن فوق أول كرسي قابلها، لكنها تقفز مذعورة عندما تلمح عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشر .. للحظات تعيد استجماع قواها مرة أخرى قبل أن تتوجه بصعوبة نحو المطبخ .. ساعتان ويصل ابنها من العمل .. عليها أن تنهي إعداد الطعام قبل وصوله .. تعلم أنه يأت جائعاً .. يأكل حتى قبل أن يبدل ملابسه .. هي التي علمته من صغره أن لا يتناول أي طعام في الخارج .. لم تكن تثق بأكل المطاعم على أي حال .. ورغم ساعات عمله الطويل إلا أنه ينتظر حتى يعود للمنزل لتناول طعامه معها .. الوقت الوحيد في اليوم الذي تتمكن من الاجتماع به ورؤيته قبل أن يعاود الخروج لعمله مرة أخرى في المساء .. ينتابها بعض الحماس .. تشعر ببعض النشاط يدب في جسدها الواهن .. تشعل الموقد .. لما يبدو كل شئ باهتاً أمام عينيها اليوم .. ربما من أثر المياه البيضاء التي أهملت طويلاً علاجها .. نصحها الطبيب مراراً بضرورة إجراء عملية عاجلة ولكنها لا تحب العمليات .. تخاف منها .. زوجها مات على طاولة عملية .. كما أن أولادها دائماً بحاجة إليها .. لا تقوى على البقاء بعيدة عن المنزل وعن أولادها لفترة طويلة .. تبدأ بغسل الخضروات الطازجة التي اشتراها البواب صباحاً بينما تتصاعد رائحة السمن من إناء وضعته على الموقد .. تلاحظ ارتعاش يديها وهي تمسك السكين لتقطيع البصل .. لم تكن تلك الرعشة تنتابها بتلك القوة من قبل .. نسيت تناول جرعة الدواء كما يبدو .. ستتناوله على أي حال لاحقاً فأمامها يوم مزدحم .. عليها الانتهاء من إعداد الطعام أولاً فابنها سيعود قريباً .. ثم وضع اللمسات الأخيرة للحدث الذي تنتظره .. عيد ميلاد ابنها الأصغر الذي تحتفل به اليوم

تسمع جرس الباب .. من المؤكد أنها صباح الممرضة .. تمر عليها كل صباح بناء على تعليمات طبيبها .. تمكث معها ساعة أو أكثر .. تتأكد من انتظامها على تناول الأدوية، وتمنحها تلك الحقن اليومية المؤلمة التي أوصى بها الطبيب .. تمضي نحو الباب بصعوبة وهي تستند على الحوائط .. تفتح الباب .. طالعها وجه صباح المشرق .. خرج صوتها ضعيفاً رغماً عنها وهي ترحب بها .. قبلتها صباح كالعادة وهي تدلف للداخل .. اعتادت أن تفعل ذلك كل مرة .. رغم أنها تزورها من عدة أسابيع

فقط، ولكنها تشعر بألفة غريبة معها .. توجهت صباح نحو أريكة في الصالة لتجلس عليها وهي تعبث في حقيبتها .. لحقت بها وهي تجر أقدامها بصعوبة .. تبادلا بضع كلمات .. قبل أن تستأذن منها للتوجه للمطبخ للانتهاء من الطعام قبل موعد وصول ابنها .. تطلعت صباح للساعة بتعجب قبل أن تقول:

- النهاردة الخميس .. مش ابنك بيرجع متأخر في اليوم ده

تذكرت بالفعل أن ابنها يتأخر كل خميس لحضور اجتماع أسبوعي في العمل .. تلوم النسيان الذي يهاجم ذاكرتها الضعيفة بلا هوادة .. تطفئ الموقد وتعاود الجلوس مع صباح التي أخرجت بعض الأدوات من حقيبتها .. بدأت بقياس الضغط المرتفع كالعادة .. ثم نهضت معها باتجاه غرفتها لتناولها الحقنة المعتادة .. بمجرد أن دلفت صباح إلى الغرفة حتى وقعت عيناها على جبل الأدوية الملقى بإهمال على منضدة صغيرة بجوار سريرها .. تعلم أنها تعاني من أمراض عدة .. تتذكر آخر زيارة للطبيب وتعليماته التي ألقاها إليها بصرامة:

- لازم تستريح كويس .. والأدوية تاخدها بانتظام .. أي مجهود زيادة أو إرهاق هيشكل خطر على عضلة القلب الضعيفة عندها .. حاولى تبلغي الكلام ده لأولادها

ولكنها لم تقابل أي من أولادها .. التفت إليها وهي تتمدد على السرير بألم .. خاطبتها في إشفاق:

- أنتي لازم تستريحي .. دى تعليمات الطبيب

لم ترد عليها .. ليست حمقاء أو صغيرة لا تعي قوانين الحياة .. تعلم أن مرضها تجاوز مرحلة العلاج والأمل وبدأت في مرحلة انتظار القدر .. كل ما تريده فقط بعض المسكنات كي تستطيع القيام بدورها .. لن يستطيع ألف طبيب أن يمنعها من مواصلة تحمل مسئوليتها كأم في رعاية أبنائها .. مصدر سعادتها الوحيد في الحياة الآن .. صحيح أنهم كبروا ولكنهم ما زالوا يعتمدون عليها .. لن يؤلمها المرض ولكن سيقتلها أن يسدل الستار بعد سنوات طويلة على دورها كأم لأبناء لم ينعموا كثيراً بظل الأب .. تبتسم لصباح وتنهض لتعد لها مشروب ما .. تكسبها حقنة المسكن عادة بعض النشاط .. تحاول النهوض فيجبرها ألم مفاجئ على السكون .. ما زالت بحاجة لبعض الوقت حتى ينتشر مفعول الجرعة بشكل كامل .. تستغل صباح سكونها فتبدأ ثرثرة معها لا تنقطع بسهولة .. تستسلم لها لنصف ساعة .. بعد انصراف صباح

التي قبلتها وهي تغادر .. تعود للمطبخ لمعاودة أعمالها .. تمزج الدقيق والبيض والسكر في إناء كبير .. تصنع كيكة كبيرة قبل أن تضعها في الفرن لتنضج ببطء .. تعود لغرفتها لتناول دوائها الصباحي الذي نسيته

في طريقها تقع عيناها على غرفة ابنها محمود .. آخر أبنائها .. تتذكر فجأة أمر ما .. تلوم ذاكرتها تلك المرة بقوة أكبر .. تتوجه على الفور إلى غرفته .. دائماً تؤجل تنظيف الغرفة حتى قبل موعد قدوم ابنها بساعات فتكون جاهزة لاستقباله .. ترجئ تناول الدواء حتى تنتهي .. أجازة محمود الأسبوعية اليوم .. يصل غالباً عند الخامسة مثل أخيه .. تجتمع العائلة أخيراً في نهاية الأسبوع .. يعمل في بنك كبير في العاصمة بعيداً عنها .. ينهي عمله مبكراً فيسافر إليها .. يقضى الخميس معها والجمعة مع أصدقائه ويسافر في نهاية اليوم .. يوم واحد في الأسبوع أفضل من لا شئ .. عيد ميلاده منتصف الأسبوع القادم ولكنها ستفاجئه وتحتفل به اليوم .. حملت معها دلو من الماء رغم ثقله .. سقت الزهور التي يهوى زراعتها على حافة نافذته .. نظفت السجاد وفرشت ملاءة جديدة على السرير .. فتحت النافذة لتسمح بدخول الشمس .. مسحت الأرض بعناية ثم رتبت الغرفة .. آلام الظهر تهاجمها بقسوة وكأن عشرات من المطارق الصغيرة تهشم عظامها .. تتنفس بإجهاد ولكنها تواصل العمل .. قاربت على الانتهاء على أي حال .. تعود أن يترك غرفته في فوضى ولكنها تحب فوضويته .. تمسح بعض الغبار المتراكم فوق الزجاج المحيط بصورته .. يقولون أنه يشبهها كثيراً .. عنيد وقوي الشخصية .. يقولون أيضاً أنها دللته .. لما لا وهو آخر أبناءها .. لم تكن تبخل عليه بشئ .. تعود أن يبوح بكل مشاكله وأسراره لها .. ولكنها كانت أيضاً تقسو عليه أحياناً لمصلحته .. تتذكر عندما ضربته بشدة عندما رسب في أول اختبار بعد وفاة أبيه، ولم يرسب بعدها أبداً .. أحب الرياضيات مثلها وشجعته هي .. ربما كان ذلك هو السبب في دخوله كلية التجارة ليصبح محاسباً فيما بعد .. لا تتذكر كم مرة سهرت معه في تلك الغرفة قبيل امتحاناته .. وعندما تحصل على عمل بعيداً عنها وتردد في الذهاب .. شجعته وطلبت منه أن يتصرف كرجل لا كطفل ثم بكت عندما خلا البيت منه لأول مرة ونامت ليلتها في غرفته .. هو أيضاً اعتاد أن يكون قوياً أمام الناس ولكن بداخله قلب حساس .. تتمنى فقط أن لا يشبهها ويرث قلب عليل ضعيف مثلها

ترتب المائدة بحماس .. أسرتها الصغيرة تعاود اجتماعها الأسبوعي اليوم .. لم يحدث أن افترقوا بتلك الصورة من قبل .. تعاودها الذكريات .. عند وفاة زوجها راهنوا على

فشلها كثيراً .. أم عاملة دون زوج لم يترك خلفه شئ يذكر.. وطفلين في أشد مراحل الاحتياج إليها .. كتب عليها أن تقوم بثلاثة أدوار على مسرح حياتها .. أم وأب وعاملة .. انتظر البعض فشلها وبخاصة أهل زوجها لإسدال الستار على خلافاتهم معها وانتزاع الأطفال منها .. ولكنها صمدت .. صبرت .. وقاومت .. لم تكن صلبة ولكن حبها لأبنائها أورثها صلابة لم تظن يوماً أنها تمتلكها .. عملها كموظفة حسابات في شركة كبيرة بالإضافة إلى معاش زوجها الضئيل وفر لها الحماية من ذل سؤال الناس .. ألحقت أبنائها بمدارس خاصة تنهي يومها الدراسي متأخراً حتى تستطيع إنهاء عملها بعد الظهر والتوجه للسوق ثم اصطحابهم بعد المدرسة .. أجهدها الأمر في البداية واستنزف قواها .. خاضت حرب طويلة مع أهل زوجها بعد إعلانهم نيتهم ضم الولدين إلى أحضانهم .. كادت أن تستسلم ولكن خوفها على أبناءها زادها إصراراً .. وانتصرت في النهاية على حساب أشياء مهمة تراجعت كثيراً في قائمة أولوياتها خلف أبناءها أولها صحتها .. ضحت بالزواج .. وقبله بمال ربما كان كافياً لإنهاء كل أزماتها عندما عرض عليها رئيسها في العمل التلاعب في حسابات الشركة للتهرب من الضرائب .. لم يكن ضميرها الذي منعها فقط، ولكن خوفها أن ترى أجساد أبنائها تنمو أمامها من حرام هو ما جعلها تصر على الرفض بحزم .. اضطررت للانتقال إلى وظيفة أخرى بعد اضطهاد رئيسها السابق لها .. زادت أعبائها ولكنها لم تستسلم .. هاجمها المرض مبكراً فأسلمت له قلبها ولكنها لم تسمح له أن يضعف من عزيمتها .. وفرت لأبناءها كل ما يحتاجونه قدر استطاعتها .. لم تسمح يوماً بدخول غريب إلى بيتها .. تعلمت أن تستذكر لهم دروسهم حتى لا تحتاج إلى مدرس خاص ينتهك حرمة بيت تسكنه امرأة بلا رجل .. ربت أولادها على الأخلاق .. منحتهما الثقة من الصغر .. لم يشعر أي منهما أنه أقل من غيره .. حتى أبناء الجيران كانوا يحسدون أبناءها أحياناً .. ندمها الوحيد أنها لم تنجب لولديها أختاً تكون أم صغرى لهما، وتواصل بعض دورها بعد رحيلها .. صعب عليها حقاً أن لا يجتمع أولادها إلا مرة في الأسبوع ولكنها تعي طبيعة الحياة .. ليس ذلك وقت الذكريات .. هزت رأسها وهي تخاطب نفسها .. اليوم يوم الاحتفال بابنها .. عيد ميلاده الذي تحرص على الاحتفاء به سنوياً منذ صغره

نظرت إلى الساعة عندما انتهت من ترتيب الغرفة .. تقترب من الثالثة .. هل الوقت يمضي أسرع أم تراها هي التي باتت بطيئة أكثر من اللازم .. أمامها أقل من ساعتان حتى يعود ابنها الأكبر من عمله .. وبعدها بدقائق يصل الأصغر .. وما زال أمامها

كثير من المهام لتنجزها .. توجهت إلى المطبخ لتتأكد من نضج الكيكة التي أعدتها للمناسبة .. أسرعت لتبديل ملابسها .. ما زال عليها شراء بعض الحلوى والأغراض الأخرى .. لا تثق بذوق البواب .. ستقوم بذلك بنفسها .. عندما انتهت من تغيير ملابسها كانت تلهث وكأنها انتهت للتو من سباق طويل .. على باب المنزل تذكرت أنها لم تتناول جرعة الدواء بعد .. فلتتنظر حتى تعود .. تستند على سور الدرج .. تهبط على قدم واحدة بعدما تحطمت الأخرى من سنة أثر انزلاقها في الحمام ولم تلتئم عظامها المسنة بعد بشكل جيد .. استغرق الأمر عشر دقائق كاملة لترى ضوء الشارع .. تفاجئها حرارة الجو .. والشمس التي أجبرتها قوتها على إغماض عينيها لوهلة .. تشق طريقها بتأن وصعوبة نحو محل بعيد تعرفه جيداً رغم وجود محلات مماثلة قريبة، ولكنها بالخبرة تدرك أن بضاعتها ليست بنفس الجودة .. وصلت وهي تسمع صوت حشرجة في صدرها بدلاً من صوت التنفس .. صدمها جو المحل المكيف فوقفت لتلتقط أنفاسها قليلاً .. انتقت مجموعة وأشارت للبائع بتغليفها .. حملت الأكياس الكبيرة للخارج .. هل زادت حرارة الشمس أم ضعفها هو الذي يهيئ لها هذا .. توجهت بصعوبة لمحل آخر أبعد لشراء بعض الأغراض وقد بدأت تشعر بحرارة جسدها ترتفع بصورة غير معتادة .. اختارت شمعاً على هيئة عدد سنوات ابنها الجميلة في حياتها .. ابتاعت بعض العصائر والمشروبات الباردة ومعها أغراض أخرى .. لم تنتبه إلى أن الحمل أصبح ثقيلاً إلى حد ما .. سارت ببطء في طريق عودتها .. عبرت الشارع بصعوبة لتدلف إلى محل عطور اختارت منه زجاجة عطر غالية يحبها ابنها .. طلبت من البائع أن يغلفها على شكل هدية .. لم تنسى أن تشتري زجاجة أخرى لابنها الأكبر من النوع الذي يفضله أيضاً .. اليوم تحتفل بهما معاً .. هكذا اعتادت في كل مناسبة .. حملت الأغراض وتوجهت للخارج .. يجبرها الحمل الثقيل على أن تسير بتمهل .. بدأت تسمع صوت تنفسها العالي .. تشعر بقلبها ينبض بقوة أكبر .. ربما بسبب الحفل الذي تعده وتنتظره .. ولكنه ينبض بألم و كأن وتد معدني بارد يخترقه ببطء .. تتجاهل الأمر .. ازدادت حرارة الجو ولا وجود لظل في الشارع .. لن تتوقف على أي حال للاستمتاع بالظل والوقت يداهمها .. أمتار قليلة فقط وتصل لبيتها .. تصلبت يداها وبرزت الشرايين منها وهي تتشبث بالأكياس .. دقائق وتصل لوجهتها .. تحاملت .. ترى معالم الطريق باهتة أكثر من اللازم .. الصور أمامها بلا تفاصيل .. يبدو أنه من أثر المياة البيضاء التي تراكمت على عينيها .. ينحني ظهرها قليلاً تحت ثقل الحمل وهي التي اعتادت أن لا تمشي إلا مرفوعة الرأس .. تشعر بحراتها ترتفع .. تلهث .. خطواتها تبطئ بالرغم من أنها تبذل

مجهوداً أكبر .. يصيب قدميها تثاقل خبيث .. لا تريد أن تتوقف .. ترى البناية من بعيد فتشعر أنها على بعد أميال .. تستنشق الهواء بقوة أكبر فلا ينفذ إلى صدرها منه إلا القليل .. لم تعد تسمع ضوضاء الشارع .. يغطى صوت ضربات قلبها العالي على أي صوت آخر .. ما زالت تشق طريقها رغم ذلك .. تحاول أن تتطلع للوقت ولكن الصورة تبهت تماماً .. الألم ينسحب ويتجمع عند قلبها .. الهواء رغم وفرته لا ينفذ إليها .. تدريجياً يكسو اللون الأحمر عيناها فيكتسي كل شئ باللون الدامي نفسه .. رجفة تسرى في أطرافها .. عندما تنجح أخيراً في الوصول إلى مدخل البناية .. تفشل في الإبقاء على توازنها .. تتعثر .. تضعف مقاومتها .. ورغماً عنها تتهاوى ..

علمت صباح بما حدث في اليوم التالي .. وجدوها أمام مدخل البناية بعد أن تهاوت على الأرض ويدها ما زالت متشبثة بما تحمله .. لم يستطع الطبيب القيام بشئ لإنقاذها .. وتكفل أقاربها بكل الإجراءات

رغم توقعها بحدوث ذلك إلا أن الأمر صدمها .. صدمها أكثر أن تفقدها بعد أن تعلقت بها وأحبتها .. في المساء مرت على بيتها .. انتابها الألم حقاً وهي ترى سرداق العزاء أمامه .. انهالت دموعها رغم عنها وهي تستعيد صورة المرأة الطيبة التي عرفتها لأيام فتركت أثراً لا يمحى في قلبها .. أمام السرداق الكبير يقف بعض الرجال .. لم تعرف منهم إلا البواب .. رجل منهم يرتدى بذلة أنيقة يقف في صدر السرداق يتلقى التعازى من الجميع .. لم تقع عيناها عليه من قبل .. خرج البواب في تلك اللحظة ليحمل بعض الكراسي فتوجهت إليه .. سألته عما حدث .. تمالكت نفسها بصعوبة وهو يحكي .. عندما انتهي سألت عن أبناءها لتقديم العزاء .. أشار البواب إلى الرجل الذي يرتدى البذلة .. ابنها الأكبر .. تطلعت إليه .. صمتت لبرهه .. هزت رأسها قليلاً ثم قالت:

- أول مرة أشوفه .. رغم أني كنت بزورها يومياً

تطلع إليها البواب في دهشة .. صاح سريعا:

- تشوفيه أزاي إذا كان هو مهاجر في كندا من خمس سنين

لثوان تطلعت إليه في ذهول .. رددت دون وعي:

- مهاجر .. أزاي

تمالكت نفسها قليلاً .. تطلعت إليه لبرهه دون أن تتكلم .. سألته بصعوبة:

- لكن عمرها ما قالت أنه مسافر قبل كده .. وابنها التاني؟

رد عليها وهو يواصل نقل بعض الكراسي: مسافر في دولة عربية .. جاله عقد عمل بعد ما سافر أخوه بكام شهر .. نزل بعدها بسنة أتجوز وسافر هو ومراته .. ومن ساعتها ما رجعوش .. ابنها الكبير بس لما عرف رجع النهاردة الصبح، والتاني احتمال يوصل بكرة .. الله يرحمها كانت طيبة .. ما حدش عارف ليه صممت تنزل أمبارح بنفسها رغم مرضها، وليه اشترت كل الحاجات دي .. تحبي تروحي تعزي أبنها

حمل الكراسي بعدها متوجهاً سريعاً إلى السرداق تاركا إياها خلفه دون انتظار إجابتها

التحدي

أحب التفاؤل وأنظر للحياة دائماً بنظرة إيجابية .. عكس صديقي المتشائم أغلب الوقت .. جلسنا يوماً في منزلي نثرثر ونشاهد التلفاز بعد سهرة عائلية .. كنت على وشك متابعة نشرة الأخبار عندما رأيت علامات الاعتراض على وجهه .. طلب مني تغيير المحطة فوراً .. سألني باستهجان عن سر متابعتي لنشرات الأخبار بشغف رغم ما تعج به من كوارث ومآسى .. أدرك أن صديقي متشائم بطبعه وإن كان دائما يفسر ذلك بأنه واقعي .. أجبته بثقة - لا أعلم مصدرها - بأن ليس كل ما تحتويه النشرة أخبار سلبية .. فأحياناً تأت بالعديد من الأخبار الجيدة أيضاً .. طلبت منه أن ينظر لنصف الكوب الممتلئ .. اعتدل في مكانه وضحك بلا سبب .. تحداني ببساطة أن نعثر على خبر واحد جيد في كل نشرات الأخبار التي يعرضها التلفاز .. كان التحدي مفاجئاً .. خصوصاً من صديقي الذي لم أنجح يوماً في هزيمته في أي رهان بيننا من قبل .. تحمست للفكرة وقبلت التحدي الذي عرضه على الفور

لم يكن يهمني الرهان بقدر أن أثبت خطأه .. استرخى على مقعده بهدوء بينما أمسكت ريموت التلفاز بيدي وكأني أمسك سيفاً استعداداً لمعركة .. انطلقت النشرة بالأخبار العامة .. مجموعة منتقاة من الكوارث أحبطتني .. رأيت ابتسامة سخرية ترتسم على وجهه .. أنباء فيضان تعقبها صور حصرية لزلزال حديث .. علاقات متوترة بين بعض الدول .. مشاهد دمار أخرى ولكن تلك المرة لكوارث بشرية خلفتها حروب دول .. انتقلت إلى أخبار الاقتصاد المحلية .. عجز وديون .. تضخم ومؤشرات على فساد مالي يضرب أي جهد لإصلاح اقتصاد متعثر .. رأيته يتابع حماسي بهدوء .. لن أيأس سريعاً .. غيرت المحطة بسرعة لأصادف نشرة أخبار أجنبية

طالعت تصريحات عن تدخل أجنبي جديد في بلد أفريقي تعمه الفوضى .. تعثر مفاجئ لمفاوضات السلام المحتضرة .. ثم القبض عل مجرم خطير اغتصب العديد من النساء .. وإطلاق نار داخل مدرسة مجددا .. تحاشيت النظر لوجه صديقي بصعوبة .. لجأت تلك المرة إلى محطة عربية .. مظاهرات يتم قمعها بسرعة .. القبض على عدد من زعماء المعارضة في بلد آخر .. واغتيال عالم بارز في ظروف غامضة .. تطلعت بطرف عيني لصديقي .. استفزني هدوئه .. زاد إصرارى .. قلت له بتصميم لا أعلم مصدره أني لن أترك جهاز التحكم من يدى حتى يسمع أكثر من خبر جيد .. هربت إلى الأخبار المحلية .. وسط فيضان من الأنباء المثيرة للغثيان .. التقطت أذني أول

خبر جيد .. زيادة كبيرة في الأجور لموظفي الحكومة .. ابتسمت أخيراً .. التفت لصديقي .. أشرت إلى الخبر المفرح .. لم يعلق وظل هادئاً .. لا أعلم لما لم يسعده الخبر رغم أن الزيادة ستطول راتبه باعتباره من موظفي الحكومة .. أخذتني شهوة الفوز وصممت على تأكيده بالعثور على خبر آخر .. تنقلت كثيراً بين القنوات حتى عثرت على خبر القبض على مسئول كبير بتهمة الفساد .. قلت له أن هذا الخبر أكثر من جيد .. هز رأسه بالنفي .. قال أن الخبر الجيد هو عدم وجود فساد من الأصل .. لم أجادله رغم عدم موافقتي على رأيه .. تابعت التنقل بين القنوات أكثر .. كدت أيأس .. وصلت لقناة رياضية .. منتخبنا يفوز في مباراة هامة في تصفيات المونديال .. يقترب أخيراً من حلم الصعود لكأس العالم بعد ابتعاد طويل .. كدت أقفز فرحاً .. لم يحاول أن يجادلني هذه المرة .. اكتفى بهز كتفيه بلا مبالاة .. كنت أتمنى أن يعترف بخطأه ولكنه لم يفعل .. سألته ماذا سيقدم لي بعد أن كسبت الرهان .. الخاسر دائماً في أي تحدي بيننا يختار هدية رمزية لتقديمها للمنتصر .. ضحك قائلاً أنه سيأتيني بهدية " لائقة " فور أن يقبض راتبه الجديد بعد الزيادة .. لم تهمني الهدية حقاً بقدر أن أرى نظرة الهزيمة في عينيه للمرة الأولى اعترافاً بخطأه .. ولكن لدهشتي ظلت ابتسامة السخرية نفسها مطبوعةعلى وجهه

في اليوم التالي توجهت لشراء بعض الاحتياجات فور الانتهاء من العمل .. تفاجئت أن أسعار معظم السلع زادت بنسب متفاوتة .. كيف يحدث أمر كهذا بين يوم وليلة .. علمت من أحد البائعين أن كبار التجار رفعوا أسعار البضائع أمس بعد علمهم بنبأ زيادة الرواتب .. تباً لهم .. لم أقبض أول راتب بعد الزيادة والأسعار انطلقت محلقة عالياً بشكل جنوني .. كان الراتب السابق يكفيني بالكاد أما الآن فأحتاج إلى حسبة معقدة .. تمنيت وقتها لو لم تأت تلك الزيادة المشئومة

بعدها بعدة أيام قرأت أن المسؤول الكبير الذي قبضوا عليه بتهمة الفساد قد أخلت النيابة سبيله بعد عدم ثبوت أدلة كافية عليه .. ورغم حساباته المتضخمة في البنوك وسمعته السيئة التي تسبقه دائماً ويدركها الجميع .. إلا أنه أفلت من كل التهم بشكل قانوني محترف .. بل وعاد للظهور على مكتبه محمولاً على الأعناق .. ورأيت صورة له في أحد الجرائد وهو يبتسم ابتسامة واسعة ذكرتني بابتسامة صديقي الساخرة

اتصلت به واتفقت على مقابلته على المقهى .. كان المقهي مزدحماً حيث يتابع الجميع بلهفة المباراة الأخيرة لمنتخبنا في التصفيات والتي خسرها بكل جدارة وسط سباب الحاضرين .. تحول الحلم إلى كابوس كالعادة .. عندما قابلت صديقي بعد المباراة .. تعمدت أن لا أتكلم عن الرهان السابق بيننا .. تمنيت أن ينساه تماماً .. لن أستطيع الدخول معه في جدال سأخسره مجدداً .. أقبل وهو يحمل علبة متوسطة الحجم مغلفة بعناية .. تفاجئت به يناولنى إياها قائلاً أنها الهدية التي وعدني بها .. فتحت الهدية أمامه بلا كلام .. تناولت من داخلها منفضة سجائر أنيقة .. وكبيرة الحجم بشكل لفت نظري .. تطلعت نحوه باستفسار .. يعلم أنني لا أدخن كثيراً .. بل وبدأت أفكر مؤخراً في ترك التدخين بشكل نهائي .. قرأ على وجهي علامات الاستفهام .. نظر للهدية ثم قال لى بهدوء أنه يعلم مدى عشقي لمشاهدة التلفاز وبخاصة الأخبار .. فرأى أني سأحتاجها! .. تطلعت إليه بصمت .. تفرست في ملامحه جيداً .. كان جاداً ولم يكن على وجهه أي تعبير من التهكم .. لم أعلق .. أعدت وضع هديته في العلبة المغلفة بورق الهدايا .. وضعتها بجانبي .. شكرته عليها باقتضاب .. و ..

لم أعد أتابع نشرات الأخبار من وقتها

الواشي

كنت طوال عمرى واشياً .. لا أخجل من قول هذا .. بعض الناس يطلقون علي جاسوس .. خائن .. عميل .. حاقدون هم لا أهتم بهم .. ولا أهتم بما يطلقه علي الناس طالما أحصل في النهاية على ما أريده

كنت قد بدأت أتخلص من تلك الصفة قبل أن أتوجه للكلية ذات يوم في عامي الدراسي الأول هناك .. تفاجئت بمظاهرات واضطرابات تعم الجامعة .. مجموعات كبيرة من الشباب يحيط بهم أمن الجامعة المتربص دائماً لأي حركة احتجاج طلابية .. أصوات الطلاب ترتفع بحماس لتهز أرجاء الجامعة بينما شعاراتهم تنتشر في كل مكان .. ارتفعت حدة التهديدات قبل أن يحيط جنود الأمن المركزي الذين هرعوا إلى المكان بكل مداخل الجامعة ومخارجها .. أطلق الأمن جنوده المسعورة على الطلاب .. ارتفعت الهراوات والعصا الغليظة تنهال عليهم من كل جانب .. صمد الطلاب قليلاً قبل أن تزيد حدة الضربات .. هرب كثيرون منهم تحت وطأة الألم .. كنت وقتها في مكتب أحد المعيدين .. اندفع أحد الطلبة للداخل والدماء تسيل من رأسه .. كان يلهث ويتضرع إلينا بنظراته .. تطلع إليه المعيد قليلاً بتردد ثم أسرع يطلب منه الاختباء خلف مكتبه الضخم .. تناهى إلى سمعنا بعدها بقليل وقع أقدام ثقيلة قبل أن يركل أحدهم الباب بقسوة بقدمه .. هب المعيد ناحية الباب ليمنع دخول الجنود .. سأله أحدهم بغلظة عما إذا كان رأى أحد الطلاب الفارين .. هز المعيد رأسه بالنفي .. جالوا في المكان بأبصارهم للحظات قبل أن يهموا بالمغادرة .. كنت أرى من مكاني الطالب وهو يرتجف خوفاً .. كانوا على وشك الخروج بالفعل عندما صحت فجأة .. أشرت لهم بمكان الطالب .. انقض الجندي بتحفز بعد أن أزاح المعيد بخشونة أوقعته على الأرض .. صرخ الطالب في فزع عندما جذبوه من ملابسه .. نظر إلي بلا فهم وهم يسحبونه خارجاً .. وجدتني أبتسم بلا وعي .. ابتسامة كبيرة تجمع بين السخرية والشماتة ارتسمت على وجهي فجأة لم أعلم مصدرها لكنها باتت جزء مني .. وشعرت براحة لم أفهمها

بالطبع اختفى الطالب لفترة طويلة .. أما المعيد فقد تم تحويله للتحقيق .. لم أحصل على مقابل لما فعلته .. ولكني لم أهتم .. في الواقع لم يكن الأمر جديداً بالنسبة لي .. لم أفهمه .. ولكنه بدأ معي منذ طفولتي وكأني ولدت به .. يسري في دمي .. كانت أختي دائماً تقول أنني جئت للعالم واشياً .. ولم تكن تغضبني الكلمة .. فمنذ بدأت أتكلم

وأنا أنقل لأبي كل أخبارها .. أو بالأصح أخطائها .. بل أني كنت أظل أتبعها أحياناً بإلحاح حتى أعثر على هفوة ما لأسرع بإبلاغ أبي بها بسعادة .. وكانت دوماً تتلقى العقاب بسببي .. وعندما التحقت بالمدرسة تطور الأمر معي من الوشاية بشخص واحد إلى الوشاية بفصل بأكمله .. كان المجال هنا أوسع .. والأخطاء أكثر .. أتذكر عندما كان يحلو للطلبة أحياناً تقليد المعلمين أو إطلاق أسماء ساخرة عليهم .. كنت أضحك معهم بل وأشاركهم أحياناً .. ثم أتوجه إلى المعلم أو المعلمة فوراً في أقرب فرصة وبشكل لا يثير الريبة .. لن أنسى كمال أفضل أصدقائي يوم أطلق على معلم اللغة العربية اسم " كعبول " .. كان المعلم طويلاً وسميناً يلقي بالأوامر طوال الحصة دون أن يستطيع مغادرة كرسيه بسبب سمنته .. وكان يهوى دائماً ضرب الأولاد .. تفاجئ كمال في الحصة التالية بالمدرس يناديه .. اصطحبه خارج الصف .. لم نسمع سوى صوت عصا الأستاذ وهي تلوح في الهواء وتسقط على يد كمال الذي اخترق صراخه أذاننا .. بالطبع لم يعلم كمال هوية من وشى به .. ولكنني واسيته بحرارة كصديق مخلص .. وفي امتحان اللغة الإنجليزية .. لمحت زميلي مراد يغش من زميلنا محمود المتفوق دائماً .. رأيت محمود يكتب له الإجابات خلسة على المنديل ثم يرسلها له من تحت الطاولة .. لمحت المراقب وهو يتحدث مع زميله في مقدمة الفصل .. لم ينتبه أحدهما لما يحدث .. ناديت على أحداهما بحجة أني أريد سؤاله عن شئ ما غير واضح في الاختبار .. بمجرد أن اقترب المراقب مني حتى تعمدت أن أتكلم همساً .. أشرت له إلى زميلاي وهما يغشان .. لف المراقب بعدها دورة كاملة حول الصف .. انتظر لدقيقة .. عندما هم مراد بإخراج المنديل لنقل الإجابات منه .. انقض عليه فجأة .. وتم تحرير محضر غش فوراً .. ولأول مرة يرسب زميلي محمود .. ورأيته يبكي منهاراً بعد الامتحان حتى كاد يغمى عليه .. نظرت إليه وارتسمت على وجهي نفس الابتسامة التي عجزت دائماً عن إخفائها رغم محاولاتي

وتوقف الأمر قليلاً ما التحقت بالثانوية .. وظننت أنني تخلصت من تلك الصفة .. حتى ذهبت يوماً بعد المدرسة إلى درس الكيمياء .. لاحظت غياب أحد الزملاء .. اعتاد أن يتغيب باستمرار طوال الفترة الأخيرة .. سألت عليه .. أخبرونى أنه يهرب من حضور الدرس فيبقي ثمنه لنفسه ليمرح مع زملائه على المقهي .. انتابتني حالة غريبة وشعور بعدم الارتياح ظل يلازمني .. سألت طويلاً حتى عرفت عنوان بيته .. ذهبت إلى هناك على الفور وطرقت الباب .. فتح لي أبيه .. عرفته بنفسي بصفتي صديق ابنه وسألته ببراءة عنه .. أخبرنى الأب أنه ربما يكون في درس الكيمياء الآن

.. تصنعت البراءة أكثر وأنا أخبره أنني جئت للتو من درس الكيمياء ولم يكن هناك .. كما أنه لم يحضر من فترة .. بالطبع تخيلت ما حدث .. فقد غاب زميلي بعدها لفترة .. وأصبح أباه يصطحبه لكل درس بعدها .. بالطبع علم أنني السبب وراء ذلك .. ولم يغفر لي .. وعندما تقابلنا ارتسمت على وجهي بلا إرادة نفس ابتسامتي الساخرة .. وزال عني الشعور بعدم الراحة الذي كان يلازمني .. وتوقف الأمر لفترة قبل أن يعود مرة أخرى في الجامعة

أصبحت أكثر احترافاً في الكلية .. كنت معروفاً لأمن الكلية وللأساتذة .. العين المدربة التي ترى بها كل ما لا تستطيع رؤيته عن أنشطة الطلاب، والأذن التي تسمع وتحفظ وتنقل كل ما لا يصل إلى أسماعهم .. وظل الأمر سراً لفترة قبل أن ينكشف أمري .. في الواقع لم أحصل على أي مقابل أو مزايا خاصة نظير عملي .. لكنني كنت أقوم به بإخلاص شديد .. في آخر عام لي في الجامعة كنت أرى نظرات الكراهية واللوم من الجميع تجاهي .. ولكني تعودت عليها .. لما يكرهونني هؤلاء الحمقى .. يرتكب البعض الحماقات ثم ينتابهم الغضب عندما يكشف أحد أخطائهم للجميع .. فما الداعي للقيام بالخطأ من البداية؟ وهل ذنبي أنهم يسيئون التصرف والسلوك؟ ثم لماذا يلقون باللوم دوما على من يفضح أخطائهم ولا يلقون باللوم على أنفسهم أبداً لارتكابها .. من الأولى بإلقاء اللوم عليه .. وهكذا تشكلت فلسفتي الثابتة في الحياة .. لست سوى شخص يحب مساعدة الناس .. فكلما كشفت أخطاء الناس كلما قل تكرارهم لها، على الأقل خوفاً من العواقب عند اكتشافها، وبالتالي أقدم لهم صنيعا بصورة أو بأخرى .. وتخرجت من الكلية بتفوق ولكن دون صديق واحد

واستلمت عملي الجديد .. ونشطت أكثر .. فهنا الوشاية لها ثمن وقيمة .. وهي مفتاح الصعود لأعلى واكتساب مكانة خاصة لدى رؤسائك في العمل .. هي أقصر طريق مختصر للنجاح .. ولم يكن أحد هنا يعلم بالماضي الخاص بي الملئ بالوشاية .. وأصبحت أنقل لرؤسائي في العمل كل ما يدور خلف ظهورهم وكل ما يقال عنهم وراء الأبواب المغلقة .. وحصلت على أول ترقية في وقت قياسي .. وازدادت شهيتي للعمل أكثر .. وتعلمت كيف أسجل كل شئ داخل عقلي .. كل كلمة .. كل تنهيدة .. كل دعاء على شخص ما أو استمطار باللعنات عليه .. وتعلمت كيف أخرجها في الوقت المناسب .. الغريب أنني لم أجد صعوبة في حفظ أي شئ يخص غيري في ذاكرتي التي تعاني من الضعف بشكل كبير

اكتسبت شهرة سريعة عند رؤسائي .. نشطت بشكل أكبر .. وعلمني العمل أن هناك طريقان للوصول إلى قلب أي رئيس .. النفاق والوشاية .. ولم أكن منافقاً .. ولم أحاول ذلك .. بل أنني كنت أكره المنافقين .. الفئة التي تتحصل على مكانة عالية بسهولة دون أن يبذل أحدهم جهداً كالذي أقوم به في مراقبة الناس .. وتحسنت أحوالي المالية بعد عدد من الحوافز لكفائتي في العمل .. وأتاح لي القدر فرصة لم أكن أتوقعها .. كان هذا من فترة طويلة عندما أصبح كرسي الرئاسة في الشركة التي أعمل بها فارغاً بعد اقتراب شاغل المنصب من المعاش .. كان أمراً نادراً أن يصبح المنصب فارغاً .. وقع خلاف شديد بعدها بين اثنان من رؤسائي في العمل حول أحقية الحصول على أكبر منصب في الشركة .. الفرصة التي لا تتكرر كثيراً .. واتجهت الأعين تتابع الصراع الدائر بينهما .. وبات هناك رهان خاص بين العاملين حول الفائز بالمنصب الشاغر الحائر بين كل منهما .. وانحاز كل عامل لطرف .. كان التنافس على أشده بينهما قبل أن أتدخل .. كنت قد اخترت الطرف الذي انحاز له .. ولم يكن انحيازي له بناء على كفاءته في العمل أو لأنني توسمت أنه الأفضل .. ولكن فقط لأنني كنت أعمل مع غريمه وأعرف عنه كثير من الفضائح والأسرار .. وكان هذا من سوء حظه .. أو ربما القدر الذي جعلني أعمل معه .. واستطعت أن أنقل كل أخباره إلى منافسه الذي كان ينتظرها بشوق .. وبالطبع استغل الأخبار وفاز بالمنصب .. بينما توارى غريمه بالاختباء والابتعاد عن الشركة نهائياً بعد أن تسربت فضائحه .. وقربني المدير الجديد منه .. ظل محتفظاً بصنيعي .. وتصور أنني قمت بهذا إيماناً مني به .. لم يكن الأحمق يدرك طبيعتي .. ودعاني يوماً إلى الغداء في بيته .. وهناك تعرفت على ابنته .. تحولت حياتي بعدها تماماً .. في الواقع أحببتها من أول نظرة .. كانت جميلة ورقيقة .. وتبادلنا الإعجاب .. وشجعني والدها على التقدم رغم إمكانياتي المحدودة مقارنة بهم .. لم أكن موسرا مثلهم ولكنني كنت أتمتع بقدر كبير من الوسامة وأنحدر من عائلة كبيرة وينتظرني مستقبل مبهر كما يقول الجميع، والأهم أني حزت على ثقة الأب .. وتم الزواج سريعاً

يمكنني القول بعد الزواج أنني أصبحت أكثر نفوذاً وقوة .. ولم أعد أخاف أحد .. باستثناء زوجتى .. ليس فقط لأنني اكتشفت للأسف أنها سريعة الغضب ومتهورة .. أو لأن والدها هو مديري .. ولكن لأن مرض والدتي بات يجبرني على اقتطاع جزء كبير من راتبي لعلاجها، وباتت زوجتي تشارك بنسبة كبيرة في مصروف البيت بعد أن خصص لها والدها مبلغاً شهرياً حتى يمكنها أن تعيش في نفس المستوى الذي

اعتادته .. وأنجبنا ولداً جميلاً بعد عام .. وانشغلت هي به .. وأتاح لي انشغالها فرصة التحرك بحرية أكبر.. كنت قد اكتسبت مكانة خاصة داخل العمل وخارجه .. تعرفت على أوساط مختلفة وكونت علاقات متعددة .. دخلت عوالم جديدة لم أكن أتخيلها واختلطت بها .. وبدأت أتعرف على لذات أخرى في الحياة غير الوشاية والنفوذ .. لعل أهمها لذة السعي وراء النساء .. كانت البداية من خلال عملي في الشركة واختلاطي بالعملاء من النساء ممن يحاولن استمالتي للحصول على بعض المزايا وكذلك الموظفات الراغبات في الترقي السريع .. ثم تطورت علاقاتي وتشعبت حتى خارج العمل .. وأصبح لي أحياناً أكثر من عشيقة .. ومرت سنوات على هذا الحال .. وكنت حريصاً على إخفاء رائحة هذه العلاقات حتى لا تصل لأنف أحد .. وبالأخص زوجتي .. نجحت في الأمر ببراعة، ربما لأني أدرك تماماً مدى غيرة زوجتي الشديدة وعصبيتها .. وأن انكشاف أمري معناه نهاية مستقبلي .. أدرك أن مغامراتي النسائية لذة محفوفة بالمخاطر بكل تأكيد .. وربما هذا ما زاد من لذتها

استيقظت ذات يوم نشطا .. بعثت لي عشيقتي صباحاً برسالة تذكرني بموعدي معها الليلة .. تذكرت أن لدي موعد عمل مهم في التوقيت نفسه .. اضطررت للاتصال بها لتأخير الموعد قليلاً وتغيير مكان السهرة .. عادة لا أقوم بأي اتصالات وأنا في البيت من باب الاحتياط .. ولكني كنت قد تأكدت أن زوجتي في الحمام وابنى منشغل بمراجعة دروسه بجواري .. عندما عدت في المساء بعد أمسية رائعة .. تفاجئت بزوجتى في انتظاري .. كنت أعود لأجدها عادة نائمة في مثل هذا الوقت .. تظاهرت بالبراءة .. باغتتني بسؤالها عن المرأة التي سهرت معها .. ارتسمت على وجهي علامات الدهشة والإنكار .. اعتدت ذلك الأمر على أي حال .. تنتابها أحياناً نوبات من الشك فتلقي على الاتهامات لكني أنجح كل مرة في تبرئة نفسي مما يشعرها بالذنب .. كنت على وشك نفي التهمة عندما باغتتني بما لم أتوقعه .. تفاجئت بها تعرف اسم عشيقتي والمكان الذي سهرنا فيه .. بل وبموعد لقائنا .. وقفت تنتظر ردي والشرر يتطاير من عينيها .. شلتني المفاجأة عن التفكير .. هل كانت تراقبني .. هل كلفت أحد بملاحقتي .. كيف عرفت بكل تلك التفاصيل .. هل وشى بي أحد .. بدأت أرى سحب الغضب تتجمع على جبينها .. أعلم جيداً أن مستقبلى قد يجرفه فيضان عصبيتها الآن .. لا أدري ما الذي عرفته أيضاً بعد أن علمت بكل تلك التفاصيل ولهذا أطبقت فمى ولم أستطع الكذب .. وقفت كورقة في مهب الريح .. نظرت للأرض مذنباً بلا كلام أستعد للعاصفة القادمة التي ستقتلعني بلا رحمة .. لمحت ابني الصغير

ذو الخمس أعوام .. لأول مرة ألحظ وجوده معنا منذ بدأ النقاش .. نظرت إليه بحب وشفقة .. لم أرغب أن يشهد موقف كهذا .. كان يقف خلف والدته تماماً .. ورغم ما أمر به وما ينتظرني في تلك اللحظة .. لاحظت شيئاً غريباً دفعني لأن أدقق النظر فيه .. رأيته وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة .. ابتسامة تجمع بين السخرية والشماتة واحتلت جزء كبير من وجهه الطفولي البرئ .. ابتسامة أعرفها جيداً بكل تأكيد

الوحش

كنت أصعد الهرم وأنا أمسك يدها بإحكام .. من ورائنا باقى الطلاب وخلفهم الأستاذ عبود .. ترددت عند المدخل وتوقفت تماماً .. خاصة عندما رأيت المكان شبه مظلم .. لاحظت المعلمة ارتباكي .. حاولت أن تتقدم ولكني أفلت يدها وتراجعت خطوة للخلف .. تطلعت إلي بدهشة .. انحنت وجلست على ركبتيها وأنا أنظر إلى الأرض بخوف .. بيدها رفعت وجهي إليها وابتسمت .. سألتني عن سبب توقفي بنبرات هادئة .. ترددت قليلاً وأنا أرى الأطفال من خلفي وقد بدأ بعضهم في السخرية مني .. أخبرتها بخجل أني أخاف من الظلام .. ضحكت برفق .. احتضنتي لبرهة قبل أن تأمر باقي الطلاب بالدخول مع الأستاذ عبود وانتظرت هي في الخارج معي .. جلست على صخرة بجواري وهي تدارى وجهها الجميل من أشعة الشمس الحارقة .. وربتت على خدي برفق

كنا في رحلة مدرسية للهرم .. فرحت جداً عندما أعلنوا عن الرحلة في مدرستنا .. علمت لاحقا أنها مخصصة لطلاب الصف الرابع فقط بينما ما زلت في الصف الثاني .. رأيت أخي وهو يستعد للرحلة فتملكني غيظ مفاجئ .. تمنيت كثيرا زيارة الأهرامات ورؤية ذلك التمثال الذي يطلقون عليه أبو الهول .. خاصة أن معلمة الرياضيات كانت تصفني أحيانا بأبو الهول عندما أجلس ساكنة طوال الحصة ولا أشارك في أي نشاط رغم تفوقي .. ظللت أسبوعاً لا أنام وحولت حياة أسرتي إلى جحيم وأنا أبكي وأشكو لعدم قدرتي على مرافقتهم .. حاولوا إقناعي كثيراً أن بإمكاني الذهاب للرحلة لاحقاً عندما أكبر ولكني لم أصدقهم .. لم يجد أبي مفراً من التوجه للمدرسة .. طلب من إدارة المدرسة السماح لى بالذهاب للرحلة مع أخي الأكبر رغم معارضة أمي .. أحب أبي لأنه يدللني كثيراً ويلبي معظم طلباتى التي تبدو غريبة .. ولأن مدير المدرسة صديقه لذا وافق سريعا على منحي هذا الاستثناء .. ما زاد من سعادتي هو علمي بوجود مس أحلام في الرحلة .. أعرفها جيداً وأحبها وهي أيضاً تحبني .. قامت بتدريسي من قبل في الصف الأول ولكنها انتقلت هذا العام إلى الصف الرابع .. لم أكن أذكى طالباتها ولكني كنت متفوقة .. أشارك كثيراً في الإذاعة ويقولون أني موهوبة وصوتي رائع .. أحفظ الأناشيد بسرعة وأغنيها في برنامج الصباح بثقة

رأيت أبو الهول .. لم أتوقعه بهذه الضخامة .. تساءلت لما تشبهني معلمتي به رغم أني لست ضخمة مثله .. اندهشت عندما رأيته بلا أنف وتحسست أنفي بلا وعي .. اقتربنا من الهرم الأكبر .. استقبلنا مرشد ليقودنا في رحلة صعودنا للهرم لزيارته من الداخل

لم أكن أعلم أني سأزور هذا المكان المرعب من الداخل .. لو كنت أعلم لما ألححت في الذهاب .. مؤكد أن الهرم مظلم ولا مصدر للضوء بداخله .. يقولون عني جريئة .. لا أخاف من الكلاب أو القطط .. لا أخشى التعامل مع الغرباء، ولا أرتبك عند الغناء في إذاعة المدرسة أمام التلاميذ .. حتى عندما رأيت فأراً في منزلي لم أخاف منه أو أقفز رعباً فوق الأريكة مثل أمي .. ولكن الظلام شئ آخر .. أرتعد بشدة إذا اقتربت من مكان مظلم .. لا أنام ليلاً إلا في حضن أبي أو أمي .. عندما تنقطع الكهرباء في المنزل أظل أصرخ حتى تعود .. أنزل أحياناً بلهفة للعب مع صديقاتي أمام البناية ولكن عندما ألمح مدخل البناية مظلماً أظل جالسة على الدرج بخوف حتى أسمع صوت شخص يهبط الدرج فأسير خلفه حتى أتجاوز المدخل .. ربما أنتظر ساعات حتى تمل البنات وتعود كل واحدة إلى بيتها .. لا أعلم لماذا أخاف من الظلام .. ربما بسبب كل تلك الحكايات الغريبة التي سمعتها .. وكل تلك الكائنات المشوهة التي كانوا يهددونها بها عندما كنا صغاراً

لا أتصور وجود هذه الكائنات سوى في الظلام .. أراها بكل وضوح .. أشهد أشكالها المرعبة وهي تقترب منى .. بعضهم بلا سيقان وبأذرع مخيفة .. أحدهم بخاصة مرعب ويمتلك عيناً واحدة فقط تحدق في وهي تضحك بجنون فتصيب جسدي بالشلل .. أسمعها تتحرك بوضوح في الظلام وهي تتهامس وتشير نحوي .. ضحيتها التالية .. أكاد أجن وأنا أتصور ما الذي يمكنها فعله عند الإمساك بي .. حتى عندما أغمض عيني في الظلام أحس بها تلتف حولي .. أشعر بأصابعها النحيلة تلامس شعري فأنكمش أكثر .. لها أظافر طويلة متسخة وأيدى نحيفة طويلة .. يقشعر جسدي كله ويرتجف عندما أشعر بها بجواري .. لا يحميني منها أحد، حتى عندما أكون مع أبي أو أمي .. تتسلل بينهم بسهولة تامة .. الغريب أنهم لا يستطيعون رؤيتها ولكني أراها جيداً .. لا أعلم لماذا أراها أنا فقط .. لا يصدقونني عندما أصف لهم هذه الكائنات .. على الرغم من أني أصفها كما تتراءى لي تماماً .. الغريب أنها تختفي عندما يعود الضوء ولا تظهر .. ولهذا اعتاد أبي أن يترك ضوء الصالة مناراً طوال الليل فيغمر

جزء منه غرفة النوم حتى أستطيع النوم بجوارهما بسهولة بالرغم من أن الضوء يضايقه

أفقت على صوت المعلمة وهي تسألني عن سبب ترددي .. حكيت لها بكل صراحة عن مخاوفي .. استمعت إلي وهي تهز رأسها بهدوء وعندما انتهيت ابتسمت بتفهم .. كنت أعلم أنها ستفهمني .. أجلستني بجوارها .. تكلمت بثقة .. لم تنفي وجود هذه الكائنات .. لو فعلت لما صدقتها .. ولم تؤكد وجودها، ولكنها أخبرتنى أنني أقوى منها .. أستطيع أن أهزمها بسهولة .. سألتني إن كانوا أقوياء بالفعل كما أتصور فلما لم يختطفونني من قبل عندما كانت تتاح لهم الفرص .. لم أجد إجابة .. قالت أنهم لا يستطيعون إيذاء أي شخص .. مثلهم بالضبط مثل الشخصيات الشريرة التي تعرض في التلفاز .. لا يستطيعون الخروج من شاشة التلفاز لأذيتي .. أثق بمعلمتي كثيراً ولكني ما زلت خائفة .. فكرت هي لدقيقة ثم طلبت مني أن أغمض عيني .. أطعتها على الفور .. طلبت مني أن أحلم بشئ تمنيت كثيراً الحصول عليه .. أو أتخيل مكان جميل أرغب بشدة بالتواجد فيه .. للحظات لم أفلح ثم بدأت أتخيل حديقة كبيرة مليئة بالأزهار والألعاب والحلوى .. من حولى بعض صديقاتى المقربات و نحن نمرح بجوار نافورة مياة كبيرة ينتشر الرذاذ منها علينا .. وصفت لها ما أحلم به ودون أن أدري وجدت نفسى أبتسم .. حلمت بوجود أمي وأبي بجانبى ثم محيتهما من الحلم بسرعة .. أشعر بالراحة وأنا أقفز من مكان لمكان وأفعل كل شئ دون رقابة .. أستطيع أن ألتهم كل هذه الحلوى وألعب دون أن تذكرني أمي بحل واجباتي .. أحببت الأمر .. عندما فتحت عيني كنت سعيدة بالحلم الرائع وحكيت لها عنه بحماس .. ربتت على كتفي بحنان .. أسعدها كلامي .. قالت أنه دليل على أن الظلام ليس بالسئ دائماً .. عندما أغمضت عيني لم أكن أرى الضوء ولكني كنت في عالم أجمل .. ولم أصادف أي كائنات مخيفة .. أكدت أني أستطيع أن أعيش في عالم جميل من الخيال أبنيه ولا يتحكم به شخص سواي .. طلبت مني عند شعورى بالخوف أن أغمض عيني فقط وأعود لأحلم بأي عالم جميل أتمناه .. زال شعور القلق بداخلي وأحسست بالذنب لأني كنت أجبن من اللازم من قبل .. أمسكت يدي مرة أخرى وسألتني إن كنت مستعدة لدخول الهرم .. ترددت للحظة ثم وافقت بجرأة وأخبرتها أنني لم أعد أخاف من الظلام .. لم أعد أراه سيئاً مثلما اعتدت .. مشيت معها باستسلام بعد أن تجرأت قليلاً

كان الطلاب في انتظارنا ومعهم الدليل عندما دخلنا .. المكان ضيق ولكنه مضاء بالعديد من مصابيح الإنارة ولم يكن مظلماً كما تخيلت .. تعمقنا في الداخل .. استأذن الدليل منا للحظات وتركنا نتجول .. مشيت أنا والمعلمة في مؤخرة الصف ومعنا الأستاذ بدوي .. كان الأولاد يدونون كل شئ يرونه .. فالزيارة في الأصل لم تكن سوى رحلة تعليمية حيث يدرسون كل شئ عن الهرم في أحد وحدات المنهج .. مر الوقت بسرعة ونحن نستمتع رغم ضيق المكان ونقص الهواء .. ابتعدنا عن المدخل وصرنا في عمق المكان .. رأيت سائح أو اثنان .. أول مرة أرى سائحين .. كان منظرهم طريفاً .. مرت نصف ساعة وبدأنا نستعد للمغادرة .. عندما حدث أمر ما بغتة .. رأينا مصابيح الإضاءة تومض مرتان أو ثلاث .. تسمرنا في أماكننا .. ثم غرق المكان فجأة في الظلام .. سمعنا صوت الأستاذ بدوي يطلب من التلاميذ بصوت عال البقاء كما هم في أماكنهم بينما ارتفع صراخ بعضهم .. ساد الهرج للحظات قبل أن يختفي تدريجياً .. يبدو أن الجميع التزم بتعليمات المعلم نتيجة للخوف .. سمعنا بكاء البعض .. وبعضهم كان يتنفس بصعوبة .. أدرك هذا من صوت أنفاسهم السريعة المتلاحقة .. تحسست بيدي فلامست شخصاً بجواري قفز صارخاً من الرعب عندما لمسته .. كان تلميذا آخر .. صوت الأستاذ يعلو في المكان وهو يطمئن الطلاب بنبرات قوية .. سمعنا صوت الدليل يأت من مكان بعيد يخبرنا بوجود مشكلة في الكهرباء سيتم حلها سريعاً .. طلب منا البقاء في أماكننا .. لماذا يكررون هذا الطلب الغبي .. من يجرؤ على التحرك في هذا الظلام التام على أي حال .. كان الظلام حالكاً حقاً .. أعمق من أي ظلام مررت به من قبل .. لم أستطع حتى رؤية أصابع يدي .. بحثت بيدي عن المعلمة ولكني لم أجدها بجواري .. يدى أفلتتها دون قصد لحظة انقطاع الكهرباء .. يبدو أنها ذهبت لتساعد الأستاذ بدوي .. شعرت بالضعف دونها .. إحساس بالخوف يتسرب إلى سريعاً .. بدأت أرى هذه العين التي أعرفها .. وتلك الكائنات .. هذه المرة الدماء تسيل من على جانبي فمها وقد اكتسبت أنياباً جديدة .. دنت مني وهي ترفع أصابعها الرفيعة المخيفة في الهواء .. تراجعت للخلف حتى اصطدمت بجدار .. انكمشت في رعب وغطيت وجهي .. اقتربت منى أكثر .. جلست أرتعش باستسلام .. لم يخرج صوتي .. انتظرت للحظات بلا مقاومة أن تلتهمني .. ولكنها لم تفعل .. رفعت رأسي بتردد ونظرت إليها .. كانت مخيفة كما هي ولكني أدركت أنها عاجزة عن إيذائي .. لا تفعل أكثر من إثارة خوفي .. هل هي ضعيفة حقاً كما قالت معلمتي .. بدأت أشك بقدرتها على ترهيبي .. أغمضت عيني وسرحت أحاول بصعوبة تخيل مكاني المفضل .. فشلت لدقائق قبل أن أهدأ تماماً .. ارتسمت

أمامي الأشجار أولاً ثم طريق صغير .. بدأت الأزهار تنبت في كل مكان وسمعت ضحكات صديقاتي وهن يلعبن بمرح في الحديقة .. رفعت رأسي فرأيت الشمس والسحب الجميلة .. بدأت أدندن بأغنية أحبها حفظتها مؤخراً بعد أن رأيتها في التلفاز أكثر من عشرين مرة .. مع الغناء أحسست بالمرح .. انطلقت في الحديقة ألعب وأمرح .. هذه المرة قفزت في النافورة وبللت ملابسي .. مرت دقائق وأنا في عالم آخر يتسلل إليه أحياناً بكاء طفل أو صراخ آخر .. ولكني لم أهتم وواصلت اللعب بحماس .. لم أعد أشعر بما حولي .. بل بدأت أتساءل لماذا لا يستمتع هؤلاء الحمقى معي بهذا المكان الجميل ويكفوا عن إزعاجي بالبكاء .. وجدتني أبتسم بلا وعي .. سرحت في عالم أمتلكته لدقائق .. قبل أن أشعر بحركة قوية اضطرتني لمغادرته مؤقتاً .. هل جاءت وحوش جديدة لمهاجمتي .. لا .. رأيت الضوء يعود للمكان .. تنبهت وتطلعت حولي .. معظم الأطفال كانوا يفترشون الأرض وبعضهم ملتصق بالجدار والفزع واضح على وجوههم .. قاموا فوراً عند عودة سريان الطاقة .. صاح بعضهم في مرح .. ومسح بعضهم دموعه .. بدأ الأستاذ بدوي ينظم الطلاب في صفين لسرعة مغادرة المكان .. تلفت أبحث عن أخي .. وجدته يتطلع إلى بتعجب .. لم ألحظ أني وسط هذه الظروف كنت ما زلت مبتسمة وأدندن ببساطة أغنيتي المفضلة بصوت مسموع .. بدأوا يتحركون سريعاً في طريقهم للخارج بعدما عاد المرشد سريعاً ليدلهم على المخرج .. ولكن أين مس أحلام .. نساها الجميع للحظات .. كانت بجواري عند انقطاع الكهرباء .. تلفت أبحث عنها .. في ركن مظلم لمحت خيال يجلس على بعد أمتار قليلة .. ولكن الخيال لم يكن يتحرك أو يسرع للخارج كالجميع .. ناديت المرشد .. اقتربنا منه .. سلط عليه المرشد ضوء كشاف في يده .. رأينا الجالس بوضوح .. امرأة ما .. واضح من ملابسها ولكنها تخفي معظم وجهها .. ربما سائحة مذعورة .. تجلس على الأرض وقد ضمت ركبتاها على صدرها .. تلف يدها حول ساقيها بقوة وتنظر إلينا برعب ونحن نواصل تسليط الضوء عليها .. سمعت صوت أسنانها تصطك بينما جسمها يرتجف بقوة .. تنظر حولها بهلع وتخفي وجهها وكأنها تحمي نفسها من كائنات وهمية تراها .. وقفنا على بعد خطوات منها .. رفعت عيناها بعدها للحظة تحدق لشئ ما في الظلام بذعر حقيقي وكأنه سيهاجمها .. تعرفت عليها وقتها

تأكدت أنها هي .. لم تكن سائحة بل كانت معلمتي الحبيبة .. في حالة رعب تامة .. كانت مس أحلام أخرى

الدور

سألت صديقي الممثل: ما أغرب حكاية مرت بك في حياتك؟

قفز السؤال إلي ذهني فجأة فخرج بلا حساب .. سكت قليلاً سارحاً مع تيار أفكاره .. كنا نتبادل بعض الحكايات الغريبة .. نفس شلة الأنس القديمة التي تتكون مني وثلاثة من أصدقائنا .. نجتمع كل فترة في منزله .. سحب نفساً عميقاً من الشيشة المستقرة أمامه قبل أن يقول بهدوء:

- حسنا .. تعلم من سنوات طويلة كنت مجرد ممثل مغمور .. لم يكن أحد يسمع عنه .. وقتها كنت أسكن في بيت قديم متهالك .. صاحبته أرملة صغيرة في السن .. لا زلت أتذكرها جيداً حتى الآن

سكت للحظات اكتسى وجهه خلالها بابتسامة صافية قبل أن يكمل:

سافرت حول العالم والتقيت نساء بعدد شعر رأسي كما تعلم .. مغامراتي أكثر من أن أتذكرها .. بحكم عملي تعاملت مع أجمل ممثلات .. فنانات .. عارضات أزياء .. لكني لم أقابل يوماً من يضاهي حسنها .. جمال فريد من النوع الذي تقابله مرة واحدة في حياتك .. إلي اليوم ما زلت أتذكرها وكأن صورتها نقشت بألوان لا تمحى علي جدران ذاكرتي .. أحياناً عندما أؤدي مشهد رومانسي أتخيلها فقط أمامي فتنساب مشاعري وأؤدي الدور بسلاسة لا أعهدها

سألته بدهشة: لتلك الدرجة؟

رد قائلاً وقد اعتدل في جلسته: طبعاً .. كيف أستطيع أن أصف جمالها .. جمال رباني نادر أن تراه في حياتك .. صورة مثالية لن ترسمها حتى في خيالك .. لو رأيتها لأدركت قصور كلماتي عن وصفها .. صغيرة هي .. لم تتجاوز الثالثة والعشرين .. تزوجت رجل كبير في السن يماثل أبيها عمرا .. تاجر كبير من الأرياف رآها في زيارة لقريته فأعجبته .. والدها فلاح بسيط وأخوتها بعدد أصابع اليدين .. تقدم لخطبتها مباشرة فلم تسع الفرحة والدها المعدم .. تزوجها رغم أنه متزوج وبعض أولاده يفوقونه طولاً ويتجاوزونها عمراً .. سافر بها حيث استقرت في بيته القديم بعيداً عن زوجته الأولى .. بعد سنتين مات .. ورثت هى منه البيت القديم مما تسبب في خلاف بينها وبين أولاد زوجها.. استأجرت شقة منها .. لم أكن أراها كثيراً في

البداية حيث كنت أعود من عملي في المسرح كل ليلة متأخراً .. لكن في الفترة الأخيرة بدأت أترقبها وأحاول الاقتراب منها بعد أن استشعرت كم هي وحيدة .. كنت أنتهز أي فرصة لأكلمها .. أرسم وأخطط للإيقاع بها كما لو كانت حياتي تتوقف علي هذا الأمر .. مرت أسابيع وبدأت الألفة تزيد بيننا بشكل كبير لكني لم أتمكن من إيقاعها في شباكي رغم ذلك .. وإن كنت أنتظر تلك الفرصة بفارغ الصبر .. ولم أحكي لها طبعاً عن عملي كممثل فاشل

عدت يوماً من المسرح متأخراً .. أحد أصدقائي دعاني لسهرة خاصة .. وافقت رغم أني توقفت عن السهرات الحمراء من فترة .. علي مدخل البيت لمحت شبح عيد الشحات .. يجلس متدثراً ببطانية قديمة وهو يرتجف من البرد .. عادة كنت أصرخ فيه وأكيل له الشتائم عندما يظهر لي كعفاريت آخر الليل علي مدخل البيت وأنا أترنح في عودتي المتأخرة إلي منزلي .. وأحياناً أدفعه بقدمي بعيداً بقسوة .. لا أدري لما يومها شعرت بالشفقة نحوه .. عبثت في محفظتي وأخرجت نصف ما معي من نقود قليلة ومددت يدي لأعطيها له .. رفع عينيه ليرى من يحسن إليه وهو يدعو له .. بمجرد أن رآني حتى تملكه الرعب فوراً وأسرع بالزحف بعيداً عني .. وضعت النقود بجانبه وأنا أطمئنه .. ارتقيت السلم وهو يتابعني بنظراته دهشاً .. دخلت البيت بسرعة ورميت نفسي علي أقرب كرسي .. رحت في غيبوبة عميقة استيقظت منها فجأة علي صوت طرق علي الباب .. ظننت أنه من أثر الدخان .. أغمضت عيني مرة ثانية لكن عاد الطرق بعدها.. طرق خفيف علي الباب تظن من خلاله أن الطارق طفل صغير .. نهضت بصعوبة .. تساءلت مستغرباً عن القادم في وقت متأخر كذلك .. فتحت الباب وأنا أتثاءب .. وبمجرد أن رأيتها أمامي .. طار النوم من عيني في لحظة .. تبخرت سيجارة الحشيش ومعها كل ما شربته في ثوان .. كانت هي من تقف علي الباب .. لم أصدق عيني .. ترتدي فستان طويل منزلي من الصوف وفوقه شال أسود ثقيل يغطي كتفيها .. تنفخ في يدها من البرد وهي تتلفت حولها قليلاً .. رغم كل خبرتي في عالم النساء ارتبكت .. للحظات لم أدري كيف أتصرف .. وهي أيضاً لاحظت ذلك فتراجعت خطوة للخلف .. اعتذرت عن مجيئها في وقت غير مناسب .. تكلمت بسرعة عن سبب زيارتها المفاجئة .. مشكلة ما في الحمام عندي حيث يتسرب الماء منه إلي شقة جاري الذي يقطن أسفل مني كما زعمت .. قالت أنها جلبت السباك عدة مرات لمعالجة المشكلة دون أن يجدني .. طلبت مني بارتباك أن أترك لديها نسخة من

مفتاح الشقة حتى يستطيع السباك مواصلة عمله عندما يأتي في المرة القادمة .. تراجعت بعدها خطوات للوراء بانتظار ردي

تخيلت أن كلامها مجرد حجة لتقابلني .. كان يمكن أن تنتظر للصباح .. استرددت بعض وعيي وصممت علي انتهاز الفرصة .. فتحت الباب أكثر وأنا أطلب منها أن تدخل إلي أن أبحث عن المفتاح الذي أنسى دوماً مكانه .. وقفت لثوان مترددة .. كان الجو بارداً خارج الشقة وهي تضم الشال حول كتفيها بقوة لتقاوم برودة الجو .. تقدمت نحو الشقة ولكنها توقفت خلف الباب من الداخل بخطوة .. أشرت إلى كرسي في الصالة بإلحاح .. عندما رأت إصرارى دخلت مضطرة .. و بمجرد أن جلست حتى أغلقت الباب كي أقطع عليها الطريق

جلست علي طرف الكرسي .. تتلفت حولها .. تظاهرت بالبحث عن المفتاح الذي كنت أنسى مكانه فعلاً .. أطحت بزجاجة بيرة كانت تستقر بإهمال وسط الصالة إلي وراء الكرسي .. هرعت للمطيخ بعد أن عرضت عليها إعداد كوب من الشأي .. رفضت في البداية ولكني ألححت عليها .. بصراحة أنا من كنت بحاجة للشاي لأفيق .. عندما عدت أمسكت بكوب الشاي في يدها دون أن تشربه .. فقط تستمد من حرارته بعض الدفء .. بدأت بتبادل بعض الحديث معها .. كلام عام في البداية عن البيت والجيران .. كانت ترد بتحفظ .. بعد قليل تفاجئت بها تسألني: أنت ممثل؟

ضحكت ضحكة قصيرة .. قلت لها بخجل: يعني .. أدوار ثانية

رأيت عيناها تلمعان .. ابتسمت بتلقائية جميلة .. أخبرتني أنها تحب التمثيل جداً .. أردفت بحماس: تمنيت كثيراً أن أكون ممثلة .. لم أشاهد أي أفلام في حياتي في القرية لأننا لم نمتلك تلفاز في البيت .. لكني شاهدت الكثير عندما جئت إلي هنا .. المرحوم اصطحبنى مرة واحدة للسينما .. لكني لم أشاهد لك أي فيلم

قالت الجملة الأخيرة بخجل .. سكتت لدقيقة .. أخبرتها أنى ممثل مسرحي وليس لي أدوار تذكر في السينما .. هزت رأسها متفهمة .. تبادلنا الحديث بعدها .. أو بمعنى أصح هي تتكلم وأنا أستمع .. تركت لها الفرصة لتعبر عما بداخلها .. كان رأيى دائماً أن أكبر عيب في المرأة لسانها .. وأنها عندما تفتح فمها تفقد نصف جمالها .. لكن هي كانت مختلفة .. أجمل مائة مرة وهي تتحدث .. تحكي ببراءة طفلة صغيرة .. تضحك دون قصد عندما تتذكر موقف طريف .. وعندما يأت ذكر مشكلة تنظر للأرض

بخوف غريزي .. تحرك يدها كثيراً في تناغم عندما تتحدث فتكمل حركة يدها كلامها .. لو رأيتها لشعرت أنك تقف أمام لوحة جميلة .. كل شئ فيها جذاب .. نبرة صوتها .. تعبيرات وجهها .. عفويتها .. أسندت رأسي علي يدي أستمتع بجمال تلك السيمفونية المتكاملة دون أن أقاطعها رغم أن معظم كلامها كان عن مشاكلها .. تكلمت عن زوجها الذي رحل بعد أن أوصى لها بالبيت القديم في وصيته .. لكن أولاده من زوجته الأولي ما زالوا يهددونها .. قاموا برفع قضية ضدها بزعم أن والدهم لم يكن في كامل وعيه عندما كتب وصيته .. لو كسبوا القضية ستجد نفسها في الشارع خاصة بعد وفاة والدها .. ظهر الحزن واضحاً في صوتها .. رأيت بعض الدموع تترقرق في عينيها .. أبعد هي ما تكون عن المشاكل .. لا تدري لماذا يكرهها أولاد زوجها .. تتمنى أحياناً لو تترك لهم البيت وتهرب بعيداً .. زوجها ترك لها أيضاً بعض الذهب والنقود تستطيع أن تبدأ بهم حياة جديدة في أي مكان آخر .. لكنها تخاف كثيراً من الإقدام علي خطوة كتلك بسبب قلة خبرتها .. حياتها انحصرت بين بيت أبيها وزوجها .. مر الوقت سريعاً دون أن أشعر .. بعدها بفترة أطرقت للأرض بخجل واعتذرت لأنها تكلمت كثيراً .. سألتني بعدها عن المسرح والتمثيل .. لاحظت أنها قد خلعت الشال علي كتفها بعد أن شعرت ببعض الألفة .. ناولتها جريدة قديمة تظهر فيها صورة لي مع ممثل معروف للمسرحية التي أمثلها حالياً .. لم تتعرف علي طبعاً .. كنت أرتدي زي أحد الشيوخ .. سألتني بحماس عندما رأت الصورة عن الدور الذي أقوم به

في تلك الفترة كنت في بداية طريقي الحقيقي نحو النجاح .. لأول مرة أحصل علي دور كبير .. دور ثان في مسرحية جديدة لكنه دور محوري دفعني نجاحي فيه إلي بداية طريق الشهرة وقتها .. كنت أتقمص شخصية شيخ مناضل تحدى سلطان ظالم بشجاعة ومات شهيداً يدافع عن رأيه .. شخصية تاريخية مشهورة .. لا تضحك .. أعلم ما يدور في ذهنك .. ذئب في ملابس شيخ .. تناقض ساخر .. ولكنه كان أكبر دور أمثله وقتها منذ بدأت مشوار التمثيل من سنين طويلة .. قرأت كثيراً عن الشخصية .. أحضرت كل الكتب والمراجع التي تتناول سيرته .. اكتشفت أنه عالم كبير لم أكن أسمع عنه من قبل .. بهرنى بأرائه وعلمه .. احترمته جداً عندما قرأت عن مواقفه الجريئة وشجاعته .. بدأت أتدرب بجدية .. كنت أقف أمام المرآة يومياً محاولاً إتقان الدور .. أعيد المشاهد أكثر من مرة علي المسرح وقمت بكثير من البروفات لدرجة أني حفظت معظم دوري غيباً ولم أعد بحاجة إلي ملقن

ضحك فجأة وهو يقول: آه لو رأيتني بالجلباب الأبيض والعباءة .. وعمة الرأس واللحية السوداء التي يغزوها الشعر الأبيض .. لم يكن أحد ليعرفني .. حتى المخرج عندما رآني لأول مرة بالزي لم يتمالك نفسه من الضحك صائحاً : من يراك الآن يظن أنك شيخ .. ولا يدري أنك سكير وذئب نساء . لكنه كان مقتنعا جداً بي .. كنت أنام أحلم بالدور وأستيقظ لأتدرب علي كلمة .. كل تعبير .. كل إيماءة .. وكل حركة .. يقولون أحياناً أن الممثل يندمج في الدور الذي يمثله فينسى ذاته .. يعيش الدور ويتنفسه .. يتقمصه بكل حواسه .. لدرجة أنه يؤثر عليه في عالم الواقع .. أتذكر ممثل معنا ظل يؤدي دور الملك في مسرحية لفترة طويلة .. حتى أنه عندما يسكر ويضايقه أحد كان يتوهم أننا حراسه فيشير لنا قائلاً: اقتلوا هذا الوغد .. وممثلة أخرى كانت تذرف بالفعل دموعاً حقيقية عندما يقتل ابنها في أحد المشاهد علي المسرح .. لم أشعر من قبل بإحساس التقمص ذاك .. أخرج من المسرح عادة فأنسى كل شئ ولا أفكر سوى في النساء والدخان .. ولكني عرفت معنى التقمص لأول مرة مع ذلك الدور .. لدرجة أنه بدأ يؤثر علي حياتى بشكل ما .. بعد شهرين من بداية المسرحية اكتشفت أني ابتعدت كثيراً عن السهرات غير البريئة .. لم أعد أدخن كالسابق .. بدأت أنجذب لقراءة الكتب الدينية وأنا لم أقرأ في حياتي أي نص أو كتاب من أي نوع منذ تخرجي سوى الأدوار التي تعرض علي .. لم أقص عليها كل ذلك بالطبع، اكتفيت ببعض النوادر .. كانت تبتسم وهي تسمعني ولم تحاول مقاطعتي .. تكلمنا بعدها عن طموحاتنا وأحلامنا .. ضحكنا كثيراً .. مر الوقت سريعاً دون أن نشعر به .. سادت بعدها فترة صمت قصيرة .. لمحتها تعيد إحكام الشال مرة أخرى فوق كتفها .. برودة الجو بدأت تشتد .. أدركت أنها تستعد للمغادرة .. لن أضيع الفرصة .. سأصاب بالجنون بالتأكيد إذا أفلتت مني .. دار عقلي سريعا .. استأذنت منها لدقيقة .. عدت ومعي ألبوم صور اعتز به كثيراً .. يحوي كل صوري علي المسرح .. كان واضحاً أنها تحب التمثيل بالفعل .. عندما بدأت أقلب في الصور تطلعت إليها بحماس طفولي شديد .. بدأت تضحك وتعلق علي كل صورة .. تشير علي كل ممثل مشهور تميزه .. بسرعة جلست بجوارها .. وضعت يدي حول كتفها بحركة بدت عفوية وأنا أشير علي كل صورة وأسرد قصتها .. قصصت عليها كثير من الحوادث والنوادر التي تحدث علي المسرح .. سألتني إن كانت تصلح كممثلة .. أخبرتها بثقة أنها ستكون ممثلة عظيمة .. انتهزت فرصة زيادة الألفة بيننا فقمت لأجلب بعض علب البيرة من المطبخ .. ناولتها واحدة .. نظرت لها بدهشة وشك .. ضحكت وقلت مازحاً أن كل ممثلة عظيمة تشرب مثلها .. كما أنها لم تتناول الشاي الذي أعددته و لست أحب

بالتأكيد أن يرى ضيوفي أنى بخيل .. قطعت عليها فرصة التراجع وفتحت لها أحد العبوات .. انسكب جزء منها علي ملابسها .. تطلعت إلي العلبة بفضول حذر ثم شربت منها بتردد وأنا أواصل تشجيعها بهدوء .. وبسرعة صعد الدم إلي وجنتيها .. غاصت في الكرسى أكثر وهي تتطلع للصور وتطلب مني أن أحكي قصة كل صورة .. لففت ذراعي كله حولها .. بدأ لسانها يثقل قليلاً بعد تناولها للبيرة التي لم أخبرها طبعاً أنها مركزة .. تأملت شعرها الناعم .. رفعت الشال من علي كتفها دون أن تعترض .. بدأت أمرر يدي علي شعرها .. اقتربت منها حتى التصقت بها بينما أغمضت هي عينيها في استسلام .. أحسست بانتفاضة خفيفة تسري في جسدها وأنا أحتضنها .. طبعت أول قبلة علي خدها بينما تتسارع أنفاسها .. ثم قبلات حارة علي رقبتها ويدها .. لم تقاوم لذة الشهوة التي أدرك بخبرتي أنها حرمت منها طويلاً .. تهاوت بين يدي بلا مقاومة ..غرقنا في النشوة وأنا أقبلها بعنف .. أمسكت بيدها وقدتها نحو غرفة النوم وهي تمضي معي دون مقاومة

وهنا توقف صاحبى .. أشعل سيجارة وأخذ ينفثها بتوتر .. تركته حتى أنهاها دون أن أقاطعه .. رمى السيجارة وأطفأها بقوة.. سألته بلهفة : ماذا حدث بعدها؟

قال بضيق: لم يحدث شئ .. ما حدث بعدها أمر غريب حقاً لم أكن أتخيله .. أخيراً المرأة التي سعيت لأسابيع وراءها بين ذراعي .. تتهاوى في حضني .. مستسلمة تماماً .. وسط كل هذا داهمني شعورغريب لم أعرف مصدره .. شعور بعدم ارتياح .. قلق .. إحساس يتسلل إلي نفسي ببطء شديد ولكن بثبات .. شعرت باحتقار لما أقوم به .. لن تصدقني ولكن هذا بالضبط ما حدث .. كنت في بداية إحساسى بالنشوة عندما وقعت عيني علي كتاب من تلك الكتب التي اشتريتها عن الشيخ الذي أتقمص دوره .. انتابنى إحساس مزعج بالخجل .. دفعت بالكتاب بعيداً أسفل السرير .. لكن تفكيري ظل معه .. يتمرد علي .. حاولت أنساه .. أتناساه .. أتجاهله .. حاولت أن أعود للحظة المتعة ولكن أفكاري عادت إليه .. ثلاث أشهر كنت أمثل شخصيته .. أمتص أفكاره .. أقدمها .. أعيشها .. أعبر عنها .. إلي أن أصبح جزء مني لا يتخلى عني حتى في أوقات راحتي .. كنت من ساعات قليلة فقط أقف علي خشبة المسرح أتكلم عن الحق والفضيلة والشجاعة .. وها أنا ذا الآن في أحضان امرأة غريبة! .. شتان الفارق والمعنى .. واشتعل صراع غريب داخل نفسي .. صراع خاص بين شخصية ضعيفة مستسلمة تجرى وراء شهوتها .. وأخرى قوية صلبة علي استعداد لتقف وحيدة أمام العالم في مقابل كلمة حق .. وبدأ صراع آخر بين الحرام والحلال يشب بداخلي

.. حاولت إخماد هذا الصراع وعندما نجحت اكتشفت أني أخمدت شهوتي أيضاَ .. أفقت .. انتبهت .. وعندما فعلت لم أكن وقتها الممثل المغمور الذي يجري خلف متعته .. كنت أتمنى حقاً أن أعود لنفسي .. أعود لأكون هذا الأحمق العابث مرة أخرى ولكني فشلت .. بداخلي ظهرت شخصية شيخ قوي حازم مستعد لمحاربة العالم كله بثبات من أجل مبادئه .. شيخ لا يضعف أو ينهزم أمام شهواته .. نظرت للمرأة بجانبي ولم أعد ألحظ أنها جميلة .. بعدت عنها .. لاحظت هي أني تغيرت .. توقفت عن ملامستها .. غابت حرارة جسمي .. سألتني عن سر تغيري .. ما لا أنساه أبداً هو أني سحبتها بقسوة من يدها لكي تنهض .. خرجنا من غرفة النوم .. أشرت إلي الباب وأنا أطردها .. وقفت لثوان مصدومة .. التقطت ملابسها بسرعة عندما أدركت أني في منتهي الجد .. بان عليها الغضب .. اتجهت نحو الباب مسرعة بعدما طلبت منها أن لا تأتي هنا مرة أخرى .. فتحت الباب علي مصراعيه وقبل أن تخرج ألقت نظرة علي علب البيرة الملقية بإهمال في كل مكان .. نظرت لي قائلة باحتقار: تمثل علي دور المحترم .. وأنت مجرد وغد سكير .. لأول مرة أدع رجل غريب يلمسني .. ولكنه خطئى بالتأكيد ولن يتكرر .. خرجت وأغلقت الباب وراءها بعنف .. لم أنم تلك الليلة وظللت ساهراً طوال الليل أفكر .. غمرني شعور بالراحة لم أعهده من قبل .. كنت متأكد أني قمت بالصواب لأول مرة في حياتي

توقف قليلاً ليشعل سيجارة أخرى قبل أن يكمل:

تعمدت بعدها لاحقاً أن أعود للبيت متأخراً .. بعد يومين سمعت أن أولاد زوجها الأول كسبوا قضيتهم ضدها .. استعانوا ببلطجية لطردها ورمي أغراضها خارج البيت .. عرفت أنها لم تجد أحداً يقف بجانبها أو حتى يساعدها خوفاً من أولاد زوجها .. سألت عليها لكنها اختفت .. اختفت تماماً .. انشغلت بعملي .. بعدها بفترة قصيرة كتب ناقد مهم عن دوري وأشاد به .. قال أنني من أفضل الممثلين الذين رآهم تقمصاً للشخصية التي أمثلها .. ربما إحساس التقمص ذاك هو سبب شهرتي وسر نجاحي بعد ذلك في كل أعمالي .. تحصلت بعدها علي دور أكبر .. ونجحت فيه .. وبدأت أعرف طريق الشهرة .. غادرت البيت وانتقلت لمكان آخر .. انشغلت بالعمل وعالم الشهرة الذي بدأت أطرق أبوابه .. سنوات إلي أن أصبحت نجماً يشار إليه بالبنان .. لكني لم أنساها يوماً أو تمحى ذكرى تلك الليلة من ذاكرتي الهشة .. لسنوات طويلة ظللت أفتش عنها بلا فائدة .. بحثت عنها كثيراً .. أكثر مما تتخيل .. مستعد الآن أن أدفع نصف عمري وكل نقودي كي آراها مرة أخرى .. أشعر بها أمامي .. أرى ابتسامتها

وألمس يدها البضة مجدداً .. عندما تعاودني ذكرى تلك الليلة .. أحياناً ينتابني إحساس شديد بالندم .. أضعت فرصة صعب أن تتكرر مع امرأة لا تقابل مثلها في حياتك إلا مرة واحدة .. لكن صدقني وقتها كنت في حالة غريبة .. حالة سلام مع نفسي ومع كل شئ .. وشعرت أن ما قمت به الصواب

سكت قليلاً فانتهزت الفرصة لسؤاله:

- لو عاد بك الزمن لتلك الليلة مرة أخرى .. هل كنت ستنتهز الفرصة؟

- لا أعتقد أن ذلك كان سيغير من الأمر شيئاً .. في تلك الفترة كنت في حالة غريبة كما قلت لك .. حالة صفاء تام .. تصالح غريب مع ذاتي .. تغيرت في تلك الفترة كثيراً للأفضل .. وكنت إنساناً جديداً لفترة من الزمن ..

ثم سكت قليلاً قبل أن يردف: ولكن للأسف تلك الفترة لم تستمر لمدة طويلة ..

سالته بتعجب: لماذا؟

ضحك بتلقائية وهو يجيبني: لأن المسرحية انتهت والدور الذي تحصلت عليه بعدها مباشرة كان دور مجرم كبير .. بلطجى و قواد!

السيارة

كان أول من يشتري سيارة في قريتنا

قبلها اعتدنا أن نسير على الأقدام أو نستخدم الدواب في التنقل .. عربة واحدة فقط كانت تمر على القرية بانتظام كل صباح .. سيارة نقل متهالكة كانت في الأصل سيارة عسكرية لنقل الجنود اشتراها صاحبها الأسطى عبود من مخلفات الجيش .. غطى الكابينة الخارجية لتتحول إلى صندوق كبير يتسع لستة أشخاص ولكنه يحشر بها عادة عشرة ركاب .. تمر السيارة على القرية عدة مرات طوال النهار لنقل الركاب من قريتنا إلى مركز المدينة حيث الخدمات التي لا تتوفر لدينا .. يستغرق الطريق نصف ساعة تجلس فيها محني الظهر تسمع صوت تكسر عظامك عند أي مطب .. تتشبث بمقعدك جيداً حتى لا يطير جسدك في فراغ العربة عند أي منعطف حاد .. معظم الركاب عادة يستهدفون الذهاب إلى المستشفى الكبير في المدينة حيث لا يتوافر مستشفى قريب في قريتنا النائية أو لإنهاء بعض الأوراق .. أو التبضع في أسواق الملابس والخردوات المنتشرة بكثرة هناك

أمي تقول أنى شخص حقود .. تعرفنى جيداً .. اعترف أنها محقة .. ولكني عالجت نفسى بنفسي من فترة .. وظننت أني تخلصت من تلك الصفة حتى جاء محمود بسيارته

محمود ابن عمي .. كلانا ورث بيته عن أبيه .. بيت كل منا ملاصق للآخر .. تربينا معاً منذ الصغر .. تعلمنا معا في مدرسة قريتنا الوحيدة .. ولكنه أكمل تعليمه وتفرغت أنا لرعاية الأرض .. أرضه التي ورثها من أبيه لم تكن كبيرة ولهذا فضل الوظيفة بعد أن ترك زراعة الأرض لأخيه الأصغر .. بينما ورثت عن أبي أرضاً ضخمة أظل طوال النهار أشرف عليها وأعمل فيها .. نستيقظ كلانا في الوقت نفسه من الصباح .. أذهب إلى الحقل بينما ينتظر هو سيارة الأسطى عبود للتوجه إلى عمله في المدينة حيث يعمل كمحاسب في شركة كبرى هناك .. هكذا ربط القدر بين حياة كل منا .. حتى عندما تزوجنا .. اخترنا أختين .. وتزوجنا في سنة واحدة ..

ربما لم أكن لأشعر بالغيرة لو لم يسكن بجواري .. أتذكر جيداً يوم جاء بسيارته .. حدث نادر في قريتنا المتواضعة .. اخترقت السيارة أزقة قريتنا الضيقة المتعرجة بينما دفع الفضول البعض للوقوف في النوافذ وعلى أسطح البيوت للفرجة عليها .. حرص أطفال

القرية على الركض ورائها وتسلق هيكلها المعدني اللامع بينما يواصل محمود دفعهم عنها برفق .. عمدة القرية نفسه جاء ليشهد السيارة التي باتت حديث الساعة .. اشتراها محمود من أحد عملائه في الشركة الذي اضطرته الظروف للسفر فجأة .. أصبحت مثار اهتمام الناس وأحاديثهم .. عرفت لاحقاً أنه باع جزءاً من أرضه لأخيه حتى يوفر ثمنها .. انقلبت حياته بعدها .. ومعها حياتي

قبل مجئ محمود بسيارته اعتدت أن أكون محط أنظار أهل القرية .. المثل الذي يتطلع إليه الجميع بحسد .. رغم صغر سني، لكن أرضي هي الأكبر .. أكبر حتى من أرض العمدة .. محصولي هو الأفضل دائماً لأنى أزرع وأشرف على الأرض بنفسي وأستعين بأفضل الأسمدة .. وبيتي هو أكبر بيوت القرية دون منازع .. كان هذا هو المجال الذي لم ينافسني فيه أحد .. ولا حتى محمود المتعلم .. يحسدني الجميع .. صحيح أني لا أحب الحسد، ولكني أهوى أن أكون موضع اهتمام الناس وأشعر بالسعادة لذلك .. حتى تغير كل شئ يوم جاء محمود بسيارته .. بفضلها أصبح سيد القرية غير المعلن .. بمجرد أن يخرج كل صباح للتوجه إلى عمله حتى ينتهز البعض الفرصة للذهاب معه إلى المدينة لقضاء مصالحهم .. محمود طيب يخجل من رفض طلب أحد .. عكسي تماماً فأنا لا أعرف الخجل .. يقوم باصطحاب مرضاهم أحياناً إلى المستشفى في المدينة .. يحمل أغراضهم الثقيلة لنقلها من مكان لآخر .. وعند إقامة أي عرس يتطوع بزفاف العروسين بسيارته بعد أن يقوم بتزيينها بصورة مميزة .. بل ونقل الأثاث أحياناً إلى بيت العروسة .. لا يوجد في القرية بيت لم يحتاج لمحمود .. باتت أفضاله على الجميع .. أصبح لديه في وقت قصير مكانة كبيرة عند الناس تضاءلت معها مكانتي .. ينهضون من مجالسهم عند اقترابه منها .. يحيونه بحرارة ولا يتكلمون إلا إذا بدأ الكلام .. حتى العمدة بدأ يصادقه حيث يستغله أحياناً للذهاب إلى المركز في الحالات الطارئة

لا أخفي أني شعرت ببعض الغيرة في البداية .. ولكني تجاهلت هذا الشعور ولم أهتم بالأمر كثيراً .. ولكن بضعة حوادث لاحقة قضت على الهدوء النسبي بداخلي .. بدأت بزوجتي ذات صباح وأنا أراها تتطلع من النافذة باهتمام .. تشاهد أختها تخرج بصحبة محمود وأولادهم بعد أن حملوا كثير من الأغراض وكدسوها في السيارة .. علمنا أنهم في طريقهم لأحد أقاربنا في مدينة ساحلية قريبة للاستمتاع باليوم هناك هرباً من الحر الخانق الذي يجثم على القرية .. لمحت نظرات الحسد بشكل واضح على وجه زوجتي

الجميلة .. تذكرت آخر مرة ذهبنا فيها إلى هناك .. احتجنا للانتقال إلى مركز المدينة أولاً والانتظار هناك طويلاً لاستئجار سيارة أخرى للذهاب إلى المدينة الساحلية ثم استئجار سيارة أخرى لقريبي ومنها للشاطئ .. ضاعت ساعات في التنقل ووصلنا هناك مرهقين تماماً بعد أن تحطمت أضلاعنا من حمل الأغراض .. اعتدنا بعدها يومياً رؤية محمود يصطحب أولاده لمدرسة القرية بينما تخوض ابنتنا الوحيدة الوحل مع خادمتها للوصول إلى الكتاب .. وفي الأعياد يصطحب محمود أسرته للتنزه في المدينة بينما يصعب علينا الأمر بسبب صعوبة المواصلات في مثل تلك الأوقات .. ولكن الحادثة التي قصمت ظهر البعير حقاً كانت عندما قررت الأختان زيارة خالهما المريض في المدينة .. ركبنا مع الأسطى عبود بعد أن اتفقت معه على دفع أجرة السيارة كاملة حتى لا يزعجنا راكب .. حملنا بعض الهدايا وأصنافاً كثيرة من الطعام اخترناها بعناية .. تأخر الحاج عبود علينا .. عندما انطلقنا أخيراً كانت السيارة تتمايل بشدة على الطريق وكأنها في حلقة ذكر .. مما زاد الأمر سوءاً تعطلها في منتصف الطريق ولم تفلح محاولات الأسطى عبود في إصلاحها .. لساعتان وقفنا نترقب أي سيارة مارة والشمس تلهب أجسادنا .. عندما وجدنا أخيراً سيارة تتسع لأغراضنا كانت سيارة نصف نقل واضطررنا للركوب في الخلف والهواء الساخن يلفح وجوهنا .. وصلنا إلى المدينة قرب أذان الظهر ونحن نلهث من التعب .. الطامة الكبرى عندما اكتشفنا أن الهدايا التي تعبنا في حملها تبعثرت محتوياتها واختلطت ببعضها .. بينما كان محمود وزوجته هناك من الصباح ينعمون بالراحة .. عند المغادرة لم تستطع زوجتي الحركة بسبب حملها .. لم تجداً بداً من أن تستقل سيارة محمود مع أختها في رحلة العودة .. بينما تظاهرت أن لدي بعض الأشغال في المدينة حتى لا أستقل سيارته .. وعدت للقرية متأخراً ومنهك تماماً

ظلت زوجتي طوال تلك الليلة تحكي عن سيارة محمود الواسعة .. تصف كيف كانت تجلس في الخلف كملكة على المقعد المريح .. وشنطة السيارة التي كانت تسع للكثير من الأغراض .. وصفت مدى سهولة الرحلة واستمتاعها بالنظر من نافذة العربة .. ليومين ظلت تلمح .. وعندما لم تجد أذناً صاغية .. بدأت تحتد وتشكو .. طلبت بشكل مباشر أن نشتري سيارة أيضاً .. فنحن لسنا " أقل من أي أحد " كما قالت .. و لكني لم أستطع موافقتها .. لم يحن موعد حصاد المحصول بعد .. ونقودي التي كنت أجنيها اعتدت أن أشتري بها أرضاً جديدة .. لم يعد معي مال .. وحتى لو معي .. كنت أجهل تماماً قيادة السيارات بل وأخاف من الأمر .. حاولت أن أوضح لها كثيراً ولكنها لم تقتنع .. وحرصاً

على صحتها تجنبت الخوض في الأمر مرة أخرى حتى لا أدخل معها في جدال يرهقني ويؤلمها

رقيقة هي .. ولكنها عنيدة .. والغيرة عندما تتملك المرأة تتحول إلى كائن آخر يصعب إيقافه .. تعلم ضعفي نحوها .. ليس فقط لأني أحبها .. ولكن بسبب حملها المقلق .. تذكرت يوم زواجنا .. لا أخجل أن أقول أن محمود هو السبب .. عندما خطب بدأ الناس يتكلمون عن حسن اختياره وجمال خطيبته .. علمت بعدها أن لخطيبة محمود أختا أصغر وأجمل .. لم أتردد وتقدمت لخطبتها بعدها بيومين فقط .. نعم قمت بذلك .. لم أكن رأيتها من قبل .. ولكني بمجرد أن رأيتها حتى تحولت إلى إنسان آخر .. حياتي كلها كانت بين الأرض ومخازن الحبوب التي أمتلكها .. قلبي لا يتسع إلا للمال والنفوذ .. لم أتخيل يوماً أن هناك مكان في قلبي للحب والعشق .. ولكني عشقتها .. وهي أيضاً بادلتني الشعور نفسه لاحقا .. إلى الآن لا أتصور كيف كنت أعيش قبلها .. ولا أتخيل حياتي يوماً بعيداً عنها .. أخاف عليها كثيراً وأحاول إرضائها بشتى الطرق .. وهي أيضاً تسهر على راحتي .. تقوم بأي شئ لإسعادي .. تسبقني كل صباح لتودعني بشوق عند باب الدار فأكتسب قوة تكفيني لمشاق اليوم .. تساعدني في تغيير ملابسي عند العودة وتهتم بالدار جيداً ليبدو دوما في أحسن صورة وتعتنى بأمي المريضة دون طلب مني .. أنجبنا بنتاً بعد عام من زواجنا .. فرحت بها كثيراً .. ولكن الحمل أثر علي جسدها الضعيف .. حملت بعدها مرتين وأجهضت .. ولأربع سنوات كاملة لم تحمل .. تحملت ضغط أمى وعائلتي لأتزوج مرة أخرى لإنجاب ولداً يحمل اسمي .. في ليلة جاءتني باكية تتوسل إلى أن أتزوج بعد أن تأخر حملها .. غضبت وثرت عليها .. لا أريد أن يأت الولد على حسابها .. لن تستطيع امرأة أن تحل مكانها عندي حتى لو كانت ستأتيني بألف طفل .. توجهنا للعديد من الأطباء بلا فائدة .. حتى حملت أخيراً بعد سنوات من المعاناة .. تعليمات الطبيب جاءت صارمة .. يجب توفير كل وسائل الراحة لها وللجنين غير المستقر .. أي مجهود عنيف سيؤثر على سلامتها قبل الطفل .. جلبت لها خادمة وكنت أعاتبها بشدة إذا قامت بأي مجهود في البيت .. ولكنها ما زالت تصر أن تستيقظ كل صباح لتودعني .. في الفترة الأخيرة عندما ثقل حملها ووصلت إلى الشهر السابع كانت تستند بصعوبة على الحوائط حتى توصلني إلى باب الدار .. لا أغادر حتى أملي عينى من وجهها، وأيقظ الخادمة لرعايتها

لا أخفي أن كلام زوجتي حرك شيئاً بداخلي كنت أظنه اختفى من فترة .. شعور غامض يلازمني منذ الصغر لا أدري كنهه .. و لكنه يتعلق برغبتي دائماً أن أظل الأفضل .. أمي تقول أنه الحقد .. لم أكن أفهمها في البداية .. انتابني للمرة الأولى في أحدى سنوات دراستي المبكرة .. عندما أتى أحد زملائننا بقلم من الحبر السائل ذهبي اللون .. أبهرنا القلم والأضواء تنعكس عليه .. تحرك الشعور بداخلي لأول مرة .. كنت ضعيفاً وقتها ولم أستطع مواجهته .. انتظرت فرصة خروج الطلاب في الفسحة وتسللت خلسه للفصل .. أخذت القلم من حقيبة زميلي بعد أن راقبته وهو يضعه بها .. لم أسرق القلم .. لم أكن أريده .. اكتفيت فقط بأن أكسره إلى نصفين .. ثم رميته خارج سور المدرسة .. شعرت بالارتياح .. تعودت على تلك الأمور بعدها .. عندما يأتي أحدهم بملابس جديدة مثلاً .. أتعمد سكب الحبر عليه .. أو أطلب منه مشاركتنا لعب كرة القدم وأجذبه من ملابسه بشكل يبدو عفوياً أثناء اللعب فأمزقها بشدة .. تكررت حوادث كثيرة مشابهه .. وعندما كبرت توارى هذا الشعور اللعين قليلاً وظننت أني تخلصت منه قبل أن يعود ثانية

في تلك الليلة تشاجرت مع زوجتي .. عادت للحديث عن السيارة ولأول مرة تصفني بالجبن والبخل .. ثرت عليها وعنفتها بحدة .. تركت البيت غاضباً رغم برودة الجو الشديدة في الخارج .. كنت على أي حال في طريقي للمخزن لحراسته .. اعتدت أن أقوم بهذا عدة ليال بعد جمع المحصول .. تناولت بندقية والدي القديمة وخرجت من المنزل .. لأول مرة لا تودعني عند الخروج .. لم تعتاد القيام بهذا مهما كانت غاضبة مني .. مشيت في الشارع المظلم ساخطاً على كل شئ .. تفاجئت بسيارة محمود تسد مدخل الشارع أمامي .. عادة يصف سيارته أمام منزله .. ولكني حرصت في الفترة الأخيرة أن أرش كثيراً من الماء أمام المنزل حتى تحولت الأرض إلى بركة ماء صغيرة .. لم أكن أريد رؤيتها أمام بيتي .. تذكرت لرؤيتها ما حدث للتو بيني وبين زوجتي .. وكل خلافاتنا في الآونة الأخيرة .. غلت الدماء في عروقي .. قطعة الحديد الملعونة تلك هي السبب .. غمرني ذلك الشعور الغامض بقوة لحظتها .. كبته طويلاً حتى تفحل .. اقتربت منها وفي لحظة غضب ركلت هيكل السيارة بقدمي بعنف .. أفزعني الصوت العالي الصادر منها .. جفلت .. تراجعت .. خشيت أن يسمع محمود أو أحد من الجيران الصوت .. تسمرت في مكاني للحظات ولكني لم ألحظ أي حركة .. النوافذ مغلقة والسكون التام يعم المكان .. الليلة شديدة البرودة والكل يحتمي في داره تحت دفء

الأغطية خاصة أن الوقت متأخر .. تجرأت أكثر .. تملكتني فكرة مجنونة شقت طريقها إلى رأسي بسهولة .. نظرت للسيارة بحقد .. للحظة تخيلت هيكلها المعدني محطماً مساوياً للأرض .. ابتسمت .. خرجت من أحلامي .. لن أستطيع تحقيق ذلك بطبيعة الحال .. ولكن لا بأس ببعض الضرر إذن .. تلفت حولي بحذر .. توجهت نحو الإطار الأيمن .. التقطت سلكاً صغيراً من داخل جيبي كنت أسلك به البندقية القديمة .. دفعته بغيظ مكبوت نحو الإطار .. وقفت أرقبه بنشوة والهواء يفرغ منه .. توجهت بعدها لإطار آخر .. أفرغته مثل سابقه في وقت أقل .. تطلعت حولي .. السكون ما زال يعم المكان .. وقفت أتطلع إلى السيارة بعد أن شعرت ببعض الهدوء .. سيظن أن مسماراً أو حجر مدبب هو السبب .. لن تكون المرة الأولى التي يصاب فيها إطاره بسبب تلك الأشياء المنتشرة بشدة على طرق القرية البدائية .. أعلم أنها تكلفه كثيراً من حيث الجهد والمال تغيير تلك الإطارات الحمقاء .. أنهيت عملي .. سرت نحو المخزن الذي يقع في نهاية القرية بهدوء بعد أن تلاشى غضبي .. مضيت هادئ البال وقد شعرت ببعض الراحة، أدندن موال قديم أحبه أقطع به الطريق الطويل الذي يستغرق عادة نصف ساعة

لم أعرف أن عند منتصف تلك الليلة ستشعر زوجتي بالتعب .. نادت على الخادمة التي هرعت إليها على الفور .. كانت تصرخ من الألم .. هرعت الخادمة للبيت المجاور لإيقاظ أخت زوجتي، لتكتشف أختها أن زوجتي على وشك الولادة .. يهرع محمود للقابلة التي تسكن في بيت قريب منا .. يتفاجئ بغيابها نظراً لسفرها إلى قرية مجاورة في ولادة أخرى مفاجئة .. زوجتي ترقد مستسلمة .. ينساب العرق منها .. تتلوى من الانقباضات العنيفة التي تجتاحها .. تتنفس بصعوبة .. يحتقن وجهها .. الطبيب أخبرنا أن حالتها دقيقة وستحتاج لجراحة عندما يحين موعد ولادتها ولكنه لم يكن ليستشف القدر ليعرف أنها ستنجب بعد سبع .. أخت زوجتي تبكي وهي ترى علامات الحياة تختفي من على وجه أختها الوحيدة .. يقترح محمود الذهاب إلى المستشفى في المدينة .. تلف أختها عباءة واسعة على جسد زوجتي ويحكموا لف بعض الأغطية عليها .. تسندها الخادمة وأختها بصعوبة نحو الباب .. يستيقظ بعض الجيران على الجلبة .. تقف النساء على أبواب البيوت عاجزة أمام حالتها الصعبة .. تخرج إلى الشارع وهي تسير بإعياء .. تجلس على الكرسي الخلفي وهي تمسك بوهن ببطنها المنتفخ .. لا تشعر أنها بدأت تنزف ببطء .. خيط من الدماء ينساب منها بشكل طفيف .. يدير محمود مفتاح السيارة .. تتحرك السيارة ببطء ودون اتزان على غير العادة لبضعة أمتار .. يهبط محمود

ليكتشف أن أحد إطارات السيارة فارغ .. في طريقه لاستبداله يكتشف أن إطار آخر فارغ أيضاً .. يقف عاجزاً وهو يخبط بيده على السيارة بيأس .. تبكي أخت زوجتي عندما يطلعها همساً على الوضع .. ينظر في شفقة إلى المسكينة التي تلقى مصيرها داخل السيارة .. يحاول التفكير في حل .. يطرق إلى الأرض عجزاً .. و ..

صراخ زوجتي يعلو فجأة ليشق سكون الليل .. ونزيف الدماء المتواصل بدأ يزداد

انتحار فاشل

أحكم لف الحبل جيداً حول مروحة السقف الضخمة التي تتوسط غرفته الصغيرة .. تأكد أن الحبل يمكن أن يتحمل وزنه .. عقد بإحكام حلقة في نهاية الحبل ثم مرر يده عبرها .. انتهى فأفلت الحبل وتابعه وهو يتأرجح في فضاء الغرفة .. هبط من كرسيه .. ابتعد بضع خطوات وألقى نظره أخيرة .. كل شئ أصبح جاهزاً الآن .. لم يعد ينقصه سوى لحظة تنفيذ مخططه الجنوني

تطلع للحبل المتدلي من السقف .. أغمض عينيه في حنق .. ثوان وينتهي الأمر .. استهلك كل الخيارات ولم يعد أمامه طريق آخر يتسع لخطواته سوى طريق الموت .. حياته أصبحت عبء لم يعد بقادر على تحمله .. حاول كثيراً ولكن الفشل لازمه بإصرار في كل خطوة اتخذها فراراً لواقع أفضل .. عاندته الظروف والقدر ورسمت له طريقاً ينتهي دوماً مهما تعب من حيث بدأ .. اختل توازن عربته تحت وطأة ضربات الحياة، وضاقت عليه الدنيا فلم يجد يداً تمتد إليه بالحل سوى يد الموت ..

ورغم أنه عزم أمره .. ما زال يشعر بقلق غزيري يسيطر عليه .. تهاوى على طرف سريره يعيد استجماع شجاعة بدأت تفلت منه .. لم يكن قراره عشوائياً أو وليد لحظة اندفاع أو عاطفة حمقاء .. فكر كثيراً حتى ارتاح لقرار لم يتخيل يوماً أن يمنحه حق المرور بل وحرية التنقل داخل عقله .. لم يمتلك في أي لحظة من لحظات حياته جرأة كافية ليتخذ قرارا بهذا الثقل، ولكن الفشل أكسبه شجاعة لم يعهدها في نفسه .. إخفاقه المتواصل في الحياة لم يكن له حل سوى انسحاب ناجح منها .. خاض حرباً طويلة النفس أرهقته مع واقع مؤلم خرج منها كالعادة مثخن الجراح .. فقد قدرته على استجماع قواه مرة أخرى لمعركة قادمة على أمل نصر لن يأتي .. ولم يعد لديه الصبر ليتعايش مكسوراً مع جراحه المريرة التي تزيدها الأيام وألسنة الناس التهاباً

مثل كل البشر .. كان لديه طموحات وأحلام لم تكن بالكبيرة لتثير القدر ضده .. طموحات صغيرة بمقدار حظه في العالم .. وليعترف .. بمقدار مواهبه أيضاً فيه

قالوا عنه أنه مهمل .. خامل .. كسول .. دوت تلك الكلمات كثيراً في أذنه دون أن ينكرها .. طلقات أصابت سمعته المهتزة واتهامات وجهها له الجميع لم يتبرأ منها .. يعلم أنه يمتلك كل تلك الصفات وأكثر .. صفات نمت بداخله من صغره لم يدرك قسوتها إلا متأخراً .. أمه الوحيدة التي ساندته فأقنعت نفسها وأقنعته أنه سوء الحظ ..

ولكن .. لعل الحظ برئ من دمه .. يدرك أنه كسول بالفعل .. وأن كلام الناس رغم قسوته وما به دوماً من مبالغة صحيح .. لم يفلح يوماً في عمل وتعثر طويلاً في دراسته .. حاول أن يثور ويغير نفسه .. يتمرد فيتخلص من ذاته القديمة .. يرسم خيوط جديدة غير خيوط الفشل التي سارت عليها حياته طويلا ولكن من قال أن الطبع يغلب التطبع مر بالتأكيد بمحنته .. لم يعلم تحديداً كم مرة حاول، وإلى أي مدى توغل في طريق مغاير .. كم مرة حملته قدماه بعيداً نحو أمل جديد وفرح بنجاحات مؤقتة في حربه مع الحياة لأن الأمور دوماً كانت تقوده للنهاية نفسها .. صحيح أنه لم يسمح لليأس أن يتسرب كمرض خبيث إليه .. واجه نفسه بقسوة مرات عديدة .. حاول أن يتخلص من تلك الصفات التي التصقت به حتى عرف بها ولكنه كان يعود بعد كل محاولة إلى نقطة الصفر مهما طال الأمر.. تعب من محاولاته الشاقة مع عالم يعجز عن التكيف مع متطلباته ولا تؤهله قدراته ليدور معه بنفس سرعته .. يأس من السعى وراء أحلام يدرك أن الواقع لن يمنحه الفرصة لتحقيقها .. مهمل هو لا ينكر الأمر ولكنه حاول .. ولم يعد يهمه الآن ما يقوله الناس عنه .. على الأقل لم يتصف يوماً بالجبن واختار بإرادته الطريق الأصعب .. ولديه شجاعة كافية لإنهاء مسرحية وجوده الفاشلة بالنهاية التي تشبع غرور جمهور طالما تابعها بشغف كبير ..

ما زال يشعر بتوتر لا يدري مصدره .. شئ غامض يسيطر على انفعالاته ينبض مع قلبه ويسري في عروقه فلا يستطيع دفعه .. شعور غامض يرتجف له جسده .. لعله الخوف .. لحظة الانتقال الأخيرة - والأولى - لعالم مجهول لم يفر أحد من أسره ولم تهتك أسراره بعد .. من أدراه أن العالم الجديد لن يكون ملوثاً كسابقه .. قاسياً عليه بلا قلب كالذي فر منه .. أو لعل الأسوأ ينتظره .. رهان صعب لكنه مجبر حتى النهاية على خوضه .. أحرق كل أوراقه الرابحة ولم يعد لديه أمل في الفوز فليغامر إذن دون خوف .. أرض جديدة يلقي نفسه بين أحضانها لن تكون أقسى عليه من الحياة وسط عالم يلفظه .. ابتسم بمرارة وهو يتذكر حياته كلها .. ماضي تحول لشبح مفزع يترصده باستمرار .. واقع يبادله العداء ومستقبل ينتظر ككمين معد مسبقاً لاستنزافه أكثر .. تجربته المريرة في الدنيا تدفعه للإقدام نحو أي أرض جديدة تتراءى له حتى لو كان الطريق الوحيد إليها يمر عبر بوابة الموت .. قصته من البداية كتبت كمأساة لم يكن لها أن تحظى بترف النهايات السعيدة .. سينهي مأساة وجوده كما يجب أن تنتهي بفاجعة ربما يصفق لها الجمهور أخيراً وتحوز بعض الرضا، أو على الأقل بعض التقدير والشفقة لحياة بائسة ..

بدأ يذرع الغرفة قليلاً لعله يقضي على التوتر الذي يجمد أطرافه .. ترى ماذا ستكون ردة الفعل عند اكتشاف جثته .. هل تشيعه الألسن الحمقاء بالرحمة أم تصفه بالجنون .. تتناول بسخرية سيرته أم بشفقة تغلفها بعض العاطفة .. اللعنة علي كلام الناس .. على الأقل لن يتهمه أحد مجدداً بالفشل بعد أن اختار الطريق الأصعب بإرادته ونجح في عبور جسر تنهار عند الاقتراب منه شجاعة أشد الرجال تماسكاً .. لن يهدر الآن لحظاته المحدودة الأخيرة في التفكير بشئ تافه كرأي الناس .. لولا أمه لنفذ الأمر من فترة طويلة .. هي وحدها من تشغل باله في تلك اللحظة .. مسكينة هي .. لم تسبح مع تيار كلام الناس .. ظلت على إيمانها به للحظة الأخيرة .. إيمان لا يستند على أي منطق لكنه راسخ .. لو فكرت قليلاً لأدركت أنها مخطئة، ولكنها لم تفكر به إلا بقلبها .. لا يرغب أن يتسبب لها بأي ألم ولكن .. أليس من المؤلم لكلاهما استمراره هكذا .. ربما تدرك لاحقاً أن قراره كان صائباً ليريحها من عبء تحملته طويلاً .. كان عليها أن تيأس منه كما فعل الناس لعله يرتاح قليلاً من عذاب الذنب الذي يتملكه الآن نحوها .. كان عليها أن تتوقف عن زرع الأمل بداخلها وبداخله وتدرك مبكراً أن أرضه بوار لن تنبت سوى المرارة والفشل ..

هز رأسه في عنف .. لن يسمح للتردد أن يسيطر عليه في لحظاته الأخيرة .. استجمع شجاعته أو ما توافر منها واقترب من الكرسي .. صعد فوقه .. بيد هربت منها الدماء وضع الحلقة حول رقبته .. مرارة قاسية يشعر بها في حلقه .. لما تهاجمه الآن .. ماذا لو منحه العالم بعض الحظ .. وصبر عليه الناس قليلاً .. لم يكن يوماً طماعاً أو مبالغاً في أحلامه .. فقط بعض الحظ وقليل من النجاح يكفيه ليعيد تلوين حياته بألوان سعادة لم تعرفها .. رفع عينيه للسماء بحيرة .. هل يفعلها .. أحرق كل قوارب النجاة ولم يعد لديه الطاقة للسباحة مجدداً في بحور تملأها دوامات الإحباط .. غصة تهاجم حلقه ورعشة تمسك بأطرافه .. هل هناك طريق آخر لم يسلكه .. حل لم يفكر فيه .. عصر ذهنه في الأمر كثيراً من قبل، ولم يزده التفكير سوى إيماناً بقراره .. تنفس سريعاً لعله يطرد كل خواطره .. ضيق بيده الحلقة حول عنقه .. شعر بخشونة الحبل على جلد رقبته .. أغمض عينيه بألم مرغماً ذاكرته العنيدة على استدعاء صور من يحبهم في لحظاته الأخيرة .. ابتسم رغماً عنه عندما مرت بذهنه صور خطيبته .. لما كتب عليه القدر أن يعشقها لهذا الحد طالما كان سيفارقها .. وأمه التي يذوب عشقاً في ابتسامتها .. ولمسات يدها الحانية التي تمسح كل جراحه .. سيفتقد كل ذلك بالتأكيد .. اللعنة على تلك الذاكرة .. كان عليها أن تعانده وترفض طلبه ..

اهتزت أقدامه على الكرسي فارتجف قلبه .. تدافعت الأفكار بقوة داخل عقله .. فكر بسرعة وتساءل .. هل هناك فرصة أخرى يمكن أن ينفذ منها لحياة أفضل .. صحيح أنه خسر خطيبته ولكن يمكن أن يعوضها .. صحيح أنه فشل في كل عمل قام به ولكن النجاح الحقيقي يأت دوماً متأخراً .. لما لا يمنح نفسه هدنة ثانية .. فرصة للعودة يكفر بها عن هفواته ويتصالح فيها مع نفسه والعالم لعله يجد مخرجاً لأخطائه ..

أخرج رأسه من الحلقة .. نبض قلبه بعنف وهو يحدق في الحبل المتأرجح أمام بصره تماماً .. تحسس عنقه بلا وعي .. هبط من كرسيه .. خذلته أقدامه ولم تعد بقادرة على حمله فتهاوى على سريره يرتجف .. دفن رأسه بين كفيه يفكر .. هل يتراجع عن قراره الآن .. لم يعد يدري .. يوشك أن يسلمه التفكير للجنون .. صحيح الحياة جميلة لكنها ليست له .. الانتحار هروب لا ينكر ذلك .. ولكن البديل أن يبقى ليلعن حظه مع كل صباح، ويعود كل مساء ليلعق جراحه .. وهو لم يعد لديه طاقة لتحمل ضريبة خسائر أخرى ..

لا .. لن يتردد تلك المرة .. تنفس بعمق .. فتح عينيه .. اقترب من الكرسي بسرعة وخطا فوقه .. أمسك بالحبل لثوان ثم أحكم وضعه حول رقبته .. لن يمنح نفسه أملاً زائفاً .. ولن يقبل أن يعود ليمثل دور الرضا في حياة مثيرة للشفقة .. ما زال قلبه ينبض بعنف .. عليه أن يهدأ قدر الإمكان قبل لحظة التنفيذ .. يريد أن يغادر العالم بسلام قليلاً ما أحس به .. يغادر بطمأنينة بعد أن عاش طوال عمره يرتجف خوفاً من كل شئ حوله ..

ارتجفت قدماه فاهتز الكرسي .. ضغط الحبل على عنقه أكثر .. تسارعت نبضات قلبه وزفر أنفاسه بقوة .. نظر للأرض أسفل منه، كم تبدو بعيدة .. خطوة أخيرة باقية .. يترك جسده للفراغ ومصيره للقدر .. خطوة ويصبح كل ماضيه بلا قيمة وراء ظهره .. رفع رأسه إلى السماء .. يقولون أن المقبل على الموت يرى صور حياته قبل رحيله .. ابتسم بسخرية .. آخر ما يرغب أن يراه قبل موته هو صور حياته البائسة .. ثوان وينتهي الأمر على أي حال ..

حبس أنفاسه .. خطا بقدمه نحو حافة الكرسى ببطء .. تفاجئ بدمعة تنحدر من عيناه، هو الذي لم يعتاد أن يبكي مهما كان الألم الذي يتعرض له .. ولكنه يقف على حافة أكبر من قدرته على إدعاء الشجاعة .. ترى هل أخطأ .. تسرع كالعادة .. اندفع وراء خلاص سريع لهموم مؤقتة .. وأمه .. هل كان أنانياً عندما عزم أمره دون أن يفكر

في مصيرها بعده .. هي التي اتخذته عكازاً تستند عليه من عثرات الأيام فتهاوى بها مبكراً .. وخطيبته كيف تخلى عنها بسهولة .. الحب الذي انتظره طوال عمره ودعا طويلاً أن يأتيه فهرب منسحباً منه بعد أول معركة واجهها .. والناس .. لما سمح لبضع أفواه حمقاء أن تحكم على حياته وتقودها بجنون لتصل بها إلى هوة النهاية .. نهاية لم تراود خياله يوماً أو تتمثل له في أسوأ كوابيسه رغم وفرتها .. لا .. لن يسمح لنفسه بانسحاب سريع مخجل أمام وهم يسيطر عليه .. ثقته بنفسه على تجاوز الفشل ما زالت قوية رغم كل ما مر به .. لن ينهي حياته بفشل جديد يتندر به الناس .. يؤمن أن ما زال لديه الأفضل .. يشعر في عروقه بدم الحماس ما زال يتدفق فيها .. وطاقته لم تنفد بعد .. سيعود ليثبت لنفسه قبل أن يبرهن للآخرين أنه قادر على هزيمة أعدائه بنفسه .. لن يسمح للكسل والفشل أن يكونا عنوان حياته وملخصها بعد الآن .. لن تلتصق به تلك الصفات مرة أخرى .. سيعود للحياة أكثر تصميماً .. وخطيبته سيحارب العالم من أجلها .. وأمه .. ما أجمل حضنها .. سيبرهن أن ثقتها فيه كانت في محلها تماماً .. ولن يؤذي القلب الذي طالما اتسع لأحزانه فيضيف إليه حزن جديد ربما يكون أكبر من قدرته على تحمله ..

هم بالنزول من على كرسيه .. مد يده نحو الحلقة التي ضاقت بإحكام حول رقبته .. في تلك اللحظة اهتز جسده .. ارتجت الأرض بغتة تحت أقدامه .. سمع صوت شئ يتحطم .. قبل أن ينظر لأسفل تمايل الكرسي تحت ثقل جسده .. تهشم فجأة سريعاً محدثاً دويا خافتاً .. هوى جسده متأرجحاً في الفراغ .. ضرب بأقدامه في الهواء بلا وعي محاولاً العثور على شئ صلب يقف عليه بلا فائدة .. ضغط الحبل على عنقه أكثر .. انسحب الهواء من صدره في دفعات سريعة متلاحقة .. احتقنت عيناه بعد أن بدأت الدماء تندفع إليها بقوة .. تلون وجهه سريعاً بلون الدم .. بدأ يضرب بقدمه في الهواء بقوة أكبر فلا يزيده ذلك سوى ضغط الحبل السميك على حنجرته .. حاول أن يمسك بالحبل بيده ولكن قواه بدأت تخور .. جرب أن يصرخ فلم يخرج صوته .. في لحظات بدأت صور حياته تتدافع أمامه .. أدرك وقتها فقط أنها النهاية ولكنه ما زال يقاوم ويرفضها .. شعر بحواسه تكتسب ثقل مفاجئ ... الأصوات تختفي تدريجياً من حوله .. تبهت الصور لتتلاشى ببطء .. الضوء ينسحب من أمام عينيه .. يفقد قدرته على المقاومة .. يختنق .. تنتاب جسده رعشة لا يستطيع إيقافها .. ترتجف أطرافه بعنف .. و .. ببطء يتسلل إلى عالم آخر لا يعرفه ..

في تلك اللحظة .. من كل الصور التي مرت في ذهنه وقتها توقفت ذاكرته أمام واحدة منها .. لا يعرف السبب .. آخر ما يتذكره وجه أمه داخل غرفته أثناء حديث قصير معه .. ربما من يومان أو ثلاثة .. لا يستطيع تحديد الزمن بدقة .. لكنه يتذكرها جيداً وهي تهمس في أذنه قبل أن تغادر " لا تنسى أن تصلح الكرسي الصغير لأن قدمه تبدو مكسورة " .. ولكنه أهمل الأمر كعادته وتكاسل عنه .. نظر إلى الكرسي المحطم تحت قدمه .. ابتسم بسخرية والدم يندفع إلى رأسه .. أغمض عينيه في استسلام تام تلك المرة .. وترك جسده للفراغ بعد أن توقف عن المقاومة

قضاء وقدر

هل يمكن أن يحاسب الإنسان على القضاء والقدر .. تذكرت ما حدث منذ أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً .. كنت قد تخرجت وقتها من كلية الطب .. شاب بأحلام كبيرة وطموح بلا حدود ولكن بإمكانيات محدودة لا تتلائم مع طموحاته .. جاء تعييني في قرية نائية لم أسمع بها مطلقاً، ولم أجد من يستطيع أن يزودني بأي معلومات عنها .. ترددت طويلا وتقدمت بطلب لنقلي إلى مكان آخر دون جدوى .. عزمت أمري أخيرا وتوجهت إليها ذات صباح لاستلام أول عمل لي .. وصلتها ظهراً بعد رحلة شاقة تراودني أحلام كبيرة في النجاح .. وبمجرد أن استكشفت القرية حتى شعرت بالإحباط والغربة .. قرية فقيرة معظم بيوتها من طين تحيط بها من الأطراف بعض البرك والمستنقعات .. طرقها غير ممهدة تختلط فيها رائحة الحقول بروث البهائم وقلة فقط من بيوتها تزورها الكهرباء .. لا يوجد فيها سوى مقهي واحد وعلمت أن وسائل المواصلات تنعدم بها ليلاً .. للوهلة الأولى قارنت بينها وبين المدينة التي اعتدت العيش فيها .. شعرت بالفراغ والوحدة .. وعلى الرغم من صدمة الانطباع الأول قررت أن أمضي قدماً .. فلم يعد يهمني الآن سوى أن أنجح في وظيفتي الأولى، وربما شعرت لاحقاً بالراحة والسكون في جو الريف الهادئ

استلمت عملي في الوحدة الصحية بالقرية، إن جاز أن نطلق علىها هذا الاسم .. لم تكن سوى بيت متهالك من طابق واحد يشمل غرفتين أحدهما للكشف .. عرفت لاحقاً أنه كان ملحق بدوار العمدة قرر أن يخصصه كمركز صحي لخدمة أهل البلد ابتهاجاً بولادة ابن له .. يقوم على خدمة المركز ممرضة عجوز وفراش من أهل البلد .. كان أول ما فعلته أن قررت المبيت بغرفة الكشف حتى أجد سكناً، فالقرية بالطبع تخلو من وجود فنادق من أي نوع .. قمت بجرد للأدوات والأدوية الملحقة بالوحدة والتي عمل الطبيب السابق سجلاً بها .. سألت عن الأمراض الشائعة بين سكان القرية وتعداد أهلها .. ثم قررت البدء في العمل من الصباح بعد أن أستريح من عناء السفر

في الصباح بدأت العمل بعد أن حظيت بنوم مضطرب في الليل .. لم أعتاد النوم بصحبة كل هذا الكم الهائل من الحشرات .. كما أن النوم على طاولة الكشف غير مريح تماماً .. اكتشفت أن معظم أمراض أهل القرية متشابهة .. كثير منها ناتج عن سوء التغذية أو العمل تحت أشعة الشمس الحارقة .. بعضهم عند الكشف كان يحكي عن أعراض كثيرة كلها متعارضة لا تجتمع إلا لشخص مات فعلاً أو في طريقه لذلك

.. اعتدت على رؤية هذا النوع من المرضى على أي حال .. يمكن أن تعطيه بعض أقراص الفيتامينات وتقنعه أنها أحدث دواء ليقفز بعدها من الصحة في الصباح التالي .. لم تكن هناك حالات خطيرة سوى لفلاح عجوز وقع وانكسرت قدمه .. لم أجد بداً من تحويله إلي قسم العظام في الوحدة الصحية بمركز المدينة بعد أن قمت بعمل الإسعافات اللازمة .. انتهى اليوم الأول على ما يرام .. وفي المساء تجولت في القرية فلم أجد بها ما يلفت النظر .. قرية عادية تشعر أنك لو تمتلك آلة للزمن وعدت مائة سنة للوراء لألفيتها كما هي دون تغيير .. ورغم أنى لم أكمل يومي الأول هنا لكني بدأت أفتقد سهراتي بالمدينة، وخروجي مع أصدقائي كل ليلة .. أدركت أنه إضافة إلي مجهودي لأتأقلم مع الحياة هنا مستقبلاً، على أن أبذل مجهوداً آخر أكثر جدية لأنسى حياتي السابقة

كما توقعت مر أسبوع سريعاً دون جديد .. الشئ الوحيد الذي طرأ عليه التغيير في تلك القرية المنعزلة هو أنا .. زاد هزالي وشحوبي ولم أزل أعاني من الأرق ليلاً .. في صباح اليوم الثامن وبينما أكشف على أحد المرضى سمعت ضجة عالية في الخارج .. اقتحم غرفة الكشف بعدها فجأة رجل ضخم ذو شارب كث عرفت لاحقاً أنه عمدة القرية .. يحمل طفلاً صغيراً لم يتجاوز عمره ثمان أعوام يبدو هزيلاً جداً .. ثرت على الممرضة التي اقتحمت غرفة الكشف وراءه حيث أني أمرتها من قبل بمنع دخول أي شخص أثناء قيامي بالكشف على مريض مهما كانت الأسباب .. ولكنها كانت تقف عاجزة تنقل بصرها حائرة بيني وبين الرجل الضخم .. تحولت إليه بعصبية وصببت جام غضبي علىه .. جرى بيننا جدال عنيف عرفت منه أن ابنه سقط مغشياً عليه بغتة فلم يجد بداً من اقتحام الوحدة بتلك الصورة .. رغم ضخامته ومقامه كان منظره مثيراً للشفقة حقاً وهو يحتضن ابنه الصغير وجسده يرتجف من الانفعال .. تمالكت نفسي قليلاً .. أنهيت الكشف على المريض وكتبت له بعض الأدوية سريعاً ثم توجهت إلي ابن العمدة .. حملته ووضعته برفق على طاولة الكشف بينما يلاحقني العمدة بنظراته الزائغة .. لم يستغرق الأمر سوى لحظات لأدرك أن الولد أصيب بضربة شمس قوية .. حراراته مرتفعة ومعدل تنفسه بطئ .. منحته حقنة خافضة للحرارة وكتبت له بعض الأدوية ثم أمرت العمدة أن يعود بابنه لبيته ووعدته أن أوافيه هناك بعد العيادة لمتابعة الحالة .. لم يجد العمدة بداً من تنفيذ تعليماتي .. أنهيت العمل في الوحدة بعد ساعتين .. جلست مرهقاً .. دخلت الممرضة بعدها لتعتذر عما حدث .. علمت منها أنها لا تستطيع منعه حتى لو حاولت فهو كبير القرية وسيدها،

والوحدة التي نعمل فيها كانت من أملاكه يوماً .. كما أنه لم ينجب سوى ابنان أحدهما في التجنيد .. ولم يتبق له سوى هذا الولد .. قبلت اعتذارها وأمرتها بالانصراف .. رغم ما حدث والإرهاق الذي أعاني منه، إلا أنى اعتدت أن أفي بوعودي .. توجهت لمنزل العمدة الذي لم يكن من الصعب العثور عليه فهو ملاصق للوحدة .. دوار كبير حقاً ينبئ بمكانة صاحبه .. استقبلوني بلهفة .. قادوني إلي الطفل المريض بسرعة .. انخفضت حرارته قليلاً ولكنها ما زالت تثير القلق .. طلبت بعمل كمادات له وظللت طوال الليل بجواره .. أتى لي العمدة بالطعام بنفسه وتبادل معي الحديث .. قررت المبيت بجوار المريض لمتابعة حالته وقام العمدة بواجب ضيافتي على أكمل وجه، وفي الصباح كانت الحرارة قد انحسرت وبدأ الولد يتنفس بشكل طبيعي وإن كان ما زال بحاجة لمواصلة العلاج والراحة لعدة أيام .. خرجت بعدها للوحدة لأواصل العمل وأنا أقاوم النوم بصعوبة .. وفي المساء زارني العمدة .. كان شخصاً آخر .. ممتلئ قوة ومهابة ويرتدي جلباباً فاخراً من الصوف .. كانت الممرضة على حق عندما لم تعترض طريقه .. حمل هدايا كثيرة وشكرني بشدة على المجهود الذي بذلته .. قال أنه لولاي لفقد الولد وأثنى كثيراً على براعتي .. أعلم أن كلامه به مبالغة ولكن المديح أطربني، لأول مرة أجد شخص يثني على عملي .. تبادلنا الحديث طويلاً .. وعندما علم أني أنام في الوحدة شهق من المفاجأة .. كيف لطبيب مثلي أن ينام هكذا .. أمر بتجهيز بيت خاص بالضيوف ليصلح مكاناً لسكني وأقسم أن أبيت فيه .. عندما ذهبت إلي هناك أحسست أني انتقلت للجنة مقارنة بالمكان الذي كنت أسكنه مؤقتاً .. بيت من طابق واحد واسع به غرفة نوم كبيرة مجهزة بناموسية وحمام ومطبخ .. لم أكن لأحلم بأفضل من ذلك في تلك الظروف .. وإمعاناً في مكافأتي خصص لي خادمة ترعاني

لأول مرة أنام بعمق منذ مجيئى إلي هنا .. تحسنت أحوالي كثيراً بسبب المسكن الجديد .. والأهم بسبب الخادمة التي وفرت لي العديد من وسائل الراحة لشخص مهمل بطبعه مثلي .. امرأة متوسطة العمر تتفانى في عملها .. أعود لمنزلي فأجد طعامى جاهزاً .. تغسل ملابسي وتنظف المنزل قبل عودتي .. ازداد وزني بشكل ملحوظ خلال أسابيع قليلة بعد أن أصر العمدة على تزويد منزلي دائماً بشتى أشكال اللحوم والخضروات والطيور الطازجة .. بدأت أتأقلم على الحياة والعمل هنا خاصة أن العمدة صادقني واعتدت السهر في دواره كل ليلة مع أعيان القرية .. واكتشفت أن العمدة مثقف حيث درس فترة في المدينة فدارت بيننا مناقشات فكرية كثيرة وثقت الصداقة بيننا .. وبدأت الحياة العابسة في القرية تشرق على وجهها ابتسامة ضئيلة لي

كنت أنهي عملي عادة في الثالثة وأعود للمنزل فأجده مرتباً والخادمة قد انصرفت .. أحياناً كنت ألقاها عند عودتي تستعد للمغادرة فأهبها بعض النقود، أو أطلب منها حمل الطعام الدسم الذي أعدته معها حيث كنت أتناول الطعام مع العمدة في كثير من الأحيان .. وهكذا مضت أسابيع .. حتى أنهيت عملي في أحد الأيام مبكراً .. لم تكن الوحدة مزدحمة بالمرضى كالعادة يومها وعرفت بالمصادفة أن ذاك هو موسم حصاد المحصول حيث ينشغل الجميع .. حتى المرضى منهم أو المتمارضين وكبار السن يذهبون للعمل .. لم أجد ما أفعله في الوحدة فتوجهت إلي منزلي القريب طلباً للراحة وطلبت من الممرضة إبلاغي إذا كانت هناك حالات طارئة .. دخلت المنزل فسمعت حركة أوان في المطبخ .. لا بد أن الخادمة تطهو الطعام .. تعمدت أن أسعل بصوت عال حتى أنبهها لوجودي .. لفت انتباهي رائحة المنزل الجميلة .. جلست أدخن قليلاً انتظاراً لقدوم الطعام وأنا أقرأ أحد المجلات القليلة التي أتحصل عليها بصعوبة من القادمين من المدينة .. لم أكد أنهي سيجارتي حتى سمعت وقع أقدام تقترب من الغرفة .. وضعت الخادمة صحن الطعام أمامي وأنا أقرأ .. أزحت المجلة جانباً ونهضت لأساعدها في وضع الصحن الكبير .. رفعت بصري .. تفاجئت بامرأة أخرى

تسمرت في مكاني للحظات .. نعم .. امرأة أخرى غير الخادمة .. صبية شابة لم تتجاوز التاسعة عشر .. بمجرد أن وضعت الطعام حتى لفت شالها على وجهها من الخجل وانصرفت بسرعة .. ثم عادت بأبريق من الماء تحمله بيد وباليد الأخرى ما زالت تخفي وجهها بشالها .. وقفت بانتظار أوامري .. بالطبع سألتها عن الخادمة .. أجابتني بصوت منخفض من الحياء أنها ابنتها وعلمت منها أن أمها مريضة ولم تستطع القدوم فحلت مكانها .. كنت أعلم أن للخادمة بنتاً وطفلين صغيرين وأن زوجها توفي من فترة .. ولكني لم أتخيل أن ابنتها على مشارف الشباب وجميلة بهذا الشكل .. أخبرتها أني لست بحاجة لشئ .. انصرفت بعدها لتغادر المنزل وأغلقت الباب وراءها .. أقبلت على الطعام وأنا أفكر فيها .. في الواقع لم أتذوق طعاماً أشهى من الذي صنعته من قبل .. حتى الماء كان له طعم مختلف بعد أن أضافت إليه بعض من ماء الورد فنزل برداً وسلاماً على معدتي المتخمة .. وعلى الرغم من أنى لم أرى إلا نصف وجهها .. إلا أن الجمال لا يمكن إخفاءه .. في المساء سهرت مع العمدة .. سألته بشكل غير مباشر أثناء حديثنا عن الخادمة .. عرفت منه أنها أرملة معدمة مات زوجها من فترة بسيطة فخرجت للعمل .. علمت أنها أنجبت ابنتها وهي صغيرة ثم

قضت سنوات طويلة دون إنجاب حتى رزقت بولديها وأنها كانت تخدم في بيته قبل أن يلحقها بخدمتي إكراماً لي، وأنه يشهد بأمانتها وكفاءتها

بالطبع لم أحكي له أن بنتها جاءت لخدمتي اليوم بدلاً منها .. الغريب حقاً أنها لم تفكر بزيارتي رغم مرضها .. يبدو أن بعض سكان القرية هنا ما زالوا لا يثقون بالطبيب ويفضلون عليه الوصفات القديمة المعتادة من بعض العطارين المعروفين في القرية

في اليوم التالي عدت من العمل مبكراً .. وجدتها هناك .. ترتدي ثوباً جديداً فاتح اللون زادها جمالاً .. ظهرت حمرة الخجل على وجهها عندما رأتني .. لم أستطع تبادل أي حديث معها يومها لأنها انصرفت بمجرد أن وضعت الطعام .. ولكني في اليوم التالي صممت على العودة أبكر من المعتاد .. تفاجئت بعودتي .. لم تكن أعدت الطعام بعد ولهذا اضطررت للبقاء حتى الانتهاء منه .. بدأت أتجاذب معها أطراف الحديث وهي ترد على أسئلتى بإجابات موجزة مقتضبة لا تشفي غليلي .. قبل الانصراف أهديتها بعض الفاكهة التي اشتريتها وبعض الأدوية لأمها بعدما سمعت منها بإيجاز عن حالتها

مر أسبوع سريعاً وزادت الألفة بيننا تدريجياً .. أصبحت لا أفكر ليلاً أو نهاراً إلا فيها .. لم أكن شاباً ساذجاً قليل الخبرة بعالم النساء .. قمت بالعديد من المغامرات أيام دراستى قبل مجيئى إلي هنا .. وهي فتاة لا تجيد التحدث أو ابراز مفاتنها كما تجيد فتيات المدينة .. فما سر انجذابى إليها إذن .. ربما بسبب الفراغ الذي أشعر به هنا .. أو لأنها مختلفة .. لم أعرف فتيات يشبهنها من قبل .. فاكهة جميلة بكر لم تسقط بعد عن أغصانها، ولم تمسها يد من قبل .. ورغم تبسطها معى في الكلام قليلاً إلا أنى لا زلت ألحظ تحفظها عندما تكون معى .. تحافظ على مسافة بيننا عندما أكلمها .. تبقى على باب البيت مفتوحاً عندما أعود .. وعلى النوافذ أيضاً .. ولأن البيت من طابق واحد ملئ بالنوافذ فيسهل على أي مار رؤية كل ما فيه .. لم أرها يوماً تلبس ملابس قصيرة أو منزلية بسيطة تناسب عملها رغم أنها تنظف البيت يومياً .. يبدو أنها تقوم بهذا بمجرد مجيئها في الصباح عندما أكون في ذروة عملي في الوحدة

استعنت بكل الأساليب التي أعرفها لاستمالتها وتنوعت طرقي في ذلك .. بات كل فكري مقصوراً علىها .. تيقظت بداخلي حاسة صياد قديم كنت قد نسيتها .. وبدأت أحكم شباكي حولها انتظاراً لفريسة ثمينة .. استطعت في أحد الأيام أن أمسك يدها بحركة بدت عفوية وأبقيتها في يدي لأطول فترة ممكنة .. استملت قلبها بالعديد من

النوادر عن المدينة والتي كانت تطرب لسماعها .. أثرت شفقتها بحديثي عن الوحدة التي أعاني منها وحاجتي لامرأة لتشاركني حياتي المضطربة .. وعندما شعرت أنها اقتربت من الشباك .. انتهزت الفرصة واغتنمت منها قبلة أسرعت بعدها بالفرار من البيت خجلاً

كانت خطتي تسير على ما يرام إذن .. أيام وتقع بين يدي .. أخيراً بعد عشرة أيام من مطاردتها .. في اليوم التالي عدت مبكراً كالعادة أحمل بعض الهدايا اشتريتها من المدينة بعد أن أوصيت أحد زملائى هناك بإرسالها مع واحد من التجار هنا .. ابتعت كثير من الفاكهة والحلوى .. كنت أدندن أغنية أحبها وأنا أدلف للدار .. سمعت صوت جلبة في المطبخ .. لا بد أنها هناك .. أخفيت الهدايا وناديت عليها .. استغرق الأمر لحظات قبل أن أسمع صوت أقدامها .. عندما خرجت من المطبخ .. أصابتني صدمة

ليست هي .. على باب المطبخ ظهرت أمها .. وللحظة عجزت عن الكلام .. هل اشتكت لأمها بعد ما حدث.. هل أحست أمها بشئ فجاءت لتنتقم .. ولكن أمها قطعت علي حبل أفكاري السوداء عندما خرج صوتها الضعيف لتخبرني أنها تعافت من مرضها، ورأت العودة من جديد للعمل .. عاودتني الطمأنينة عندما لم أتنين في وجهها أي ملامح للشر أو الغضب .. كتمت سؤالاً كاد يقفز من طرف لساني لأسألها عن ابنتها .. هنأتها على سلامتها رغم أني رأيت علامات الإجهاد بادية بوضوح على وجهها .. يبدو أنها عانت من مرض قاس فعلاً، ولم تبرئ منه تماماً .. تناولت طعامي بلا شهية .. قبل اصرافها أشرت إلي الفاكهة والحلوى وأمرتها أن تحملها لبيتها .. لم تنسى أن تشكرني على الأدوية التي أرسلتها والتي كانت سبباً في سرعة شفائها .. لأول مرة طوال حياتى ألوم نفسي لأني كنت السبب في شفاء أحد .. اللعنة .. ليتني لم أرسل الدواء .. كنت على بعد خطوة فقط من نيل مرادي قبل أن ينهار كل شئ فجأة

لا أعرف لما راودني شعور كبير بالإحباط يومها .. كان الأمر كله عبثاً .. من البداية مجرد لهو .. رغبتي الرجولية في إثبات ذاتي بإيقاع شابة بريئة في حبالي .. مغامرة أخرى استرجعها لاحقاً عندما أكبر وأبتسم دون اهتمام بما يحدث للفتاة لاحقاً .. ربما كان هذا ما يحركني في البداية .. ولكني بدأت أحس بانجذاب شديد حقا تجاه الفتاة لا أعلم مصدره .. انجذاب حقيقي صادر عن عاطفة لم أعرفها من قبل

في الأيام القليلة التي كانت فيها معي شعرت أني أحيا في جنة هي التي صنعتها .. في المرات المعدودة التي حاورتها، ورغم نشأتها الفقيرة وقلة تعليمها، إلا أن حديثها كان

جذاب ويدل على ذهن متوقد وذكاء فطرى .. مجرد وجودها حولي كان يمنحني راحة غريبة ويضفي جو من الدفء على المنزل لا أشعر معه بالوقت .. مجنون أنا لأفكر بخادمة بهذا الشكل .. ولكن المشاعر لا تخضع للمنطق فمن يستطيع السيطرة علىها .. كل محاولاتي لنسيان الأمر جاءت بنتيجة عكسية تماماً فبدأت أفكر فيها أكثر .. أشتاق إليها .. في فترة غيابها تواردت خواطر متناقضة كثيرة في رأسي حد التصادم .. لم أعد قادراً على التركيز أو التفكير في شئ آخر .. لكن الشئ المؤكد أني كنت أرغب في رؤية فتاتي مرة أخرى بأي ثمن

مرت أربعة أيام وكدت أجن .. كان لا بد لي أن أراها بأي وسيلة .. لاحظت الخادمة توتري فأرجعته إلي ضغط العمل .. فقدت شهيتي تماماً فكنت أطلب منها أن تأخذ الطعام الذي تعده إلي بيتها خاصة أنها ما زالت في مرحلة النقاهة وتحتاج لتغذية جيدة حتى تستعيد قواها .. في اليوم الخامس انتابتها كحة شديدة .. عرضت أن أكشف عليها ولكنها تراجعت بخوف ورفضت بحزم .. تخاف إذن من الكشف عند طبيب رجل كحال كثير من النساء هنا .. ذلك هو السر في عدم مجيئها إلي عند مرضها الأول .. في اليوم التالي زادت حدة الكحة لديها .. كنت أعلم بحكم خبرتي أنه مجرد التهاب في الحلق أهمل علاجه ولن يسبب خطورة كبيرة على صحتها علي أي حال .. في ظهيرة اليوم التالي في الوحدة كنت أعبث بمحتويات بعض الأدوية بعد أن فضلت في الفترة الأخيرة أن أقضي وقت راحتي هناك بعيداً عن البيت الذي يثير لدي ذكريات لا أستطيع كبتها .. وقعت يدى على بعض المواد فخطرت لي فكرة لا أعلم كيف واتتنى ..غزت عقلي بسهولة .. لا أدرى إلى الآن كيف انهارت أمامها كل ملكات العقل والمنطق لدي وكيف وجدت قبولاً سريعاً عندي .. فكرة خبيثة حاولت أن أطردها فلم أفلح إلا في جعلها تستولي على مزيد من مساحة تفكيرى المشغول بالفتاة .. أعلم بالطبع أن الخادمة مصابة بالتهاب في الحلق .. أمامي تستقر مادة لو تناولتها تزيد حدة الحالة لديها .. بالطبع لن تعرض صحتها للخطورة ولكنها ستجبرها على المكوث في المنزل .. أعراضها مؤكدة .. لن تستطيع الكلام وستصاب بصعوبة في التنفس وربما ترتفع درجة حرارتها قليلاً .. لن تستطيع النهوض للعمل على أي حال .. ستزول الأعراض بعد عدة أيام بشكل طبيعي دون أن تصاب بضرر .. لن أعرض صحتها للخطر بالتأكيد .. ولكن بإمكانى فقط أن أضعف مقاومة جسمها للمرض قليلاً فلا تستطيع النهوض للعمل .. عندها فقط .. سترسل ابنتها بالتأكيد مجددا لخدمتى بدلاً منها .. لمعت عيناي وأنا أتدبر الأمر .. الغريب أنى لم أجد أدنى مشكلة أو صعوبة

في تقبل الفكرة نفسها.. ولكن في كيفية تنفيذها .. كيف أعطيها المادة دون أن أثير شبهتها

لو أعطيتها المادة على شكل دواء ستمرض بعدها وستوقن بأن الدواء هو السبب .. بعد طول تفكير .. وجدت أن أنسب طريقة هي أن أضع المادة في الطعام فالمادة بلا رائحة أو طعم قوي مميز .. بعد الظهر بساعة عدت لمنزلي .. تظاهرت أني متعب قليلاً .. أمرتها بغسل بعض الملابس .. ذهبت لتنفذ أمري فتسللت للمطبخ الصغير .. كنت أعلم أن العمدة أرسل لي طعاماً من منزله .. دسست المادة في بعض الأوانى الموجودة .. عندما انتهت أخبرتها أنى لا أشعر بأي شهية للطعام .. طلبت منها أن تحمل الطعام لمنزلها وتحرص على تناوله حتى تستعيد صحتها .. تطلعت إلي بامتنان .. ناولتها بعض الفاكهة التي اشتريتها أيضاً .. انصرفت وهي تتمتم لي ببعض الدعاء .. أحسست بقلبى ينبض بقوة وأنا أراها تحمل الطعام في طريقها لمنزلها .. داهمني شعور بعدم الراحة فأوشكت أن أقفز من مكاني وأعترض طريقها لأعترف لها بما قمت به .. منعت نفسى بصعوبة وجلست والعرق الغزير ينساب مني

قضيت طوال الليل قلقاً من عواقب ما فعلته .. لم أستطع النوم .. في الصباح لم تأت الخادمة .. الخطة تسير على ما يرام إذن .. توجهت لعملي بحماس أكبر من المعتاد .. عدت مبكراً متوقعاً أن أجد الفتاة .. ولكن لم يكن هناك أحد بالمنزل .. لم تأتى الخادمة، أو ترسل ابنتها .. كنت مرهقاً من التفكير طوال الليل فغفوت قليلاً .. استيقظت على صوت فراش الوحدة يناديني من الخارج لحالة طارئة .. ارتديت ملابسي ساخطاً وأنا بين اليقظة والنوم .. في الوحدة اكتشفت أن الحالة لصبيان .. طفلان أحدهما في الثالثة والثاني يكبره بعامين .. أحدهما وجهه أزرق يعانى من صعوبة في التنفس ويمسك بطنه بشده بينما الثانى جسده ساكن بشكل مثير للقلق .. انتبهت فوراً وطار النوم من عيني .. من الواضح أن الحالة خطيرة فعلاً .. بدأت بالكشف على الصبى الأكبر الذي كان يتلوى من الألم .. حرارته مرتفعة بشدة .. بعد قليل التفت إلي الصبى الآخر .. لاحظت أن جسده بارداً ومن الكشف المبدئى أدركت أن الأمر قد فات لإسعافه .. نقلت كل جهدى للطفل الأكبر في محاولة يائسة لإنقاذه .. ناولته بعض الحقن .. أمرت الجميع بالخروج ما عدا الممرضة التي كانت تقف بجوارها سيدة متشحة بالسواد لم ألحظ وجودها في البداية .. كنت مشغولاً عندما اقتربت مني .. لاحظت أني لا أكشف على الطفل الأصغر .. نظرت إلي جسده البارد .. اصطدمت بها وأنا أجهز بعض الأدوات فالتفت إليها غاضباً .. أمرتها بالخروج

صارخاً .. تسمرت في مكانها .. يبدو أنها كانت في حالة صدمة فلم تسمعني .. رغم القناع على وجهها إلا أني لاحظت أنها تبكي .. اقتربت منها الممرضة وقادتها للخارج فمضت معها في استسلام بخطوات ثقيلة .. عدت لعملي .. الطفل بحاجة لغسيل معدة بالتأكيد وبعض الفحوصات .. لا أدرى تحديداً سبب الحالة .. ولكن تصوري المبدئى أنها حالة تسمم حادة

خرجت من غرفة الكشف بعد برهة وأمرت الممرضة بتجهيز بعض الأدوات .. تقدمت مني السيدة التي تتشح بالسواد .. لم أجد بداً من مواجهتها رغم إرهاقي .. رفعت الغطاء عن وجهها .. تسمرت في مكانى .. خادمتى .. هي بعينها .. سألتنى بصوت خانق من العبرات عن حالة ابنيها .. الطفلين ولديها إذن .. كيف أخبرها .. الطفل الكبير لم يتجاوز الخطر .. والآخر لم يكتب له النجاة .. تأخروا كثيراً في إسعافهما ونقلهما إلي الوحدة الصحية .. تطلعت من باب غرفة الكشف المفتوح إلي الطفل الأصغر المسجى جسده على الطاولة أمامى بلا حياة .. تاهت مني الكلمات .. أول مرة يموت لدي مريض .. هززت رأسى بأسف .. لم اجد بداً من إخبارها بالحقيقة .. انهارت أرضاً .. تقدمت منها فتاة تتشح بالسواد مثلها .. ابنتها التي لم ألحظ وجودها من قبل .. احتضنتها لتنخرط في نوبة بكاء صامتة .. صرخت أحد السيدات الموجودات في العيادة فطلبت منها الصمت بحزم حتى أتمكن من مواصلة علاج الطفل .. لعدة ساعات انشغلت في علاجه وقياس درجة حرارته .. في المساء بدأ يتنفس أخيراً بشكل طبيعى وإن لم يفق بعد من غيبوية انتابته .. خرجت من غرفة الكشف وأنا أكاد أسقط إرهاقا

لم أجد بداً من مواصلة القيام بدورى كطبيب والتوجه نحو الأم لسؤالها بعض الاسئلة لأعرف الظروف التي أدت إلي هذه الحالة .. أخبرتني الأم المكلومة بصعوبة أن ولديها كانا بصحة جيدة .. تناولا طعام الغداء ثم لعبا قليلاً في الخارج .. في المساء بدأت بوادر الحمى تظهر قبل أن تشتد في الصباح .. لوهلة لم أجد في كلامها ما يسترعي الانتباه .. ولكن بعد لحظات بدأت أستعيد كل كلمة قالتها الأم .. كانا طبيعين قبل تناول الغداء .. هل يمكن .. غير معقول .. هل أكلا من طعام الأم .. بدأت الصورة تتضح قليلاً .. الطعام الذي أرسلته معها بالأمس .. كان لدى شك في الأعراض التي حدثت للولدين ..أعراض مألوفة لدي بلا شك .. تسمم بالتأكيد من مادة غير معروفة .. حاولت أن أتمالك نفسي .. يكاد ذهني ينفجر بمجرد تخيلي الموقف .. الأم آثرت أبنيها على نفسها وناولتهما الطعام المفترض أنه لها والذي عادت به من

منزلي .. يفسر ذلك كل شئ .. تنحيت جانباً سريعاً وذهني يكاد ينفجر .. انفردت بنفسي قليلاً في غرفة الكشف مع الطفل المريض، فيما نقلوا جثة الطفل الآخر لمكان مجهول استعداداً لدفنه .. أكاد أفقد عقلي .. ماذا فعلت .. المادة التي وضعتها بالتأكيد لم تكن لتشكل خطورة على حياة الام .. ستفقد قوتها لبضعة أيام قبل أن تتعافى تلقائياً بعد فترة .. ولكن بالنسبة لطفل صغير لم يتجاوز الثالثة .. مناعة الجسم هنا أقل .. وعواقب تناولها مميتة .. خاصة أنهم تأخروا في العلاج .. كان يجب إرسال الطفلين فوراً بمجرد ظهور الأعراض عوضاً عن الانتظار لليوم التالي لطلب مساعدة متأخرة .. كالعادة لا يلجأون للطبيب إلا بعد تفحل الأعراض وفوات الأوان .. يا إلهي .. أدركت وقتها فقط أنى السبب .. لا يمكنني إنكار ذلك .. أنا المجرم .. ما حدث كان خطئاً منى .. بسبب غبائى وتهوري دفع البعض الثمن غاليا .. أحد الأطفال مات والآخر يقف على الخط الفاصل بين الحياة والموت بسبب نزوة طائشة من قاتل في ثياب طبيب مثلي .. هرعت فزعاً فأغلقت باب غرفة الكشف ومكثت داخلها .. لا أعلم كم من الوقت مر على هكذا .. خفت أن أخرج إليهم .. كنت متأكد أن نظرة إلي وجهي، وبخاصة من الأم، ستفضحنى بكل تأكيد وتكشف أنى الفاعل .. وربما انهرت تماماً وسهلت الأمر علىهم وخرجت إليهم لأعلن أنى السبب بصوت عال

قطع على تفكيري الممرضة وهي تدلف للغرفة .. حاولت استعادة رباطة جأشي .. طلبت مني كتابة شهادة وفاة للطفل حيث تحتاجها عائلته بالخارج لأنهاء باقي الإجراءات .. يا ربى .. هذا ما لم أفكر فيه .. أقتله وأكتب شهادة وفاته بيدي .. ذلك أكثر مما يمكن لبشر تحمله .. وماذا أكتب في خانة سبب الوفاة .. عبث طبيب .. الطبيب العاشق هو السبب .. نبهتنى الممرضة بعد أن لاحظت طول صمتي .. أمسكت القلم ويدي ترتعش .. بذلت جهداً لأتمالك نفسي .. صوت العقل بداخلي – أو لعله صوت الشيطان – يناديني .. آخر ما أحتاج إليه الآن هو أن أنهار أمامهم .. ما حدث قد حدث ولن ينفع إعلانى للخطأ، لن يعيد ذلك عقارب الساعة للوراء وينقذ الطفل .. على إنقاذ مستقبلي .. لم يتراجع الموت من قبل أمام ندم قاتل ولن يفعل فما فائدة اعترافي في النهاية، لن يعيد ذلك بأي حال الحياة لمن مات .. كما أن هناك طفلا ما زال بحاجة لرعاية طبيب .. كتبت الشهادة وسلمتها للممرضة .. ذكرت فيها أن سبب الوفاة طعام ملوث .. لم أذكر شيئاً عن المادة المسببة للوفاة .. ناولتها الشهادة بيد ترتجف .. ظنت انفعالي سببه الإجهاد وصعوبة الموقف الذي نواجهه .. قررت بعدها الاعتكاف في الغرفة حتى الصباح بحجة البقاء بجوار الطفل المريض

لا أعلم كيف مر الوقت بعدها .. أحاول أن أوقف تدفق الصور في ذهني فلا أستطيع .. نجحت في إنقاذ الطفل الكبير .. سمعت المديح وعبارات الثناء من الجميع لإنقاذى طفل من براثن الموت دون أن يعلم أحد أنى قدمت طفلاً آخر قرباناً له .. حتى الأم المثكولة تمالكت نفسها وجاءت لتشكرني بنفسها فكدت أذوب أثماً وأنا أقف بين يديها أتلقى مديحها كخناجر تغرس في قلبي .. لم أطق الحياة في القرية .. قدمت استقالتي بعد فترة متحججاً ببعض الظروف العائلية في المدينة التي تدفعني للعودة .. هجرت البلدة كلها بعد عدة أسابيع مما حدث .. سعيت لبعثة في الخارج وسافرت .. ظننت أن البعد عن مكان الجريمة سينسيني ما حدث ولكن الشعور بالذنب لا يعترف بحدود أو قيود المكان فلازمني .. اصطحبنى في كل مكان فررت إليه .. رجعت بعد عدة سنوات لأفتتح عيادتي الخاصة .. انهمكت في العمل بلا راحة .. أنقذت حياة الكثير من المرضى وساهمت في شفاء أعداد لا تحصى .. ظهرت في التلفاز عدة مرات و ذاع صيتي .. بنيت مستشفي خيري وتعددت أعمالي الإنسانية .. ولكن كل هذا كان مجرد مخدر لتسكين آلام الضمير المزمنة .. قطعت علاقتى بالماضي إلا من خيط واحد .. تواصلت مع العمدة سراً لسنوات للاطمئنان على حالته في الظاهر .. وحالة الأسرة التي دسست الموت بين أفرادها .. أرسلت له مبالغ مالية عندما تحسنت حالتي وطلبت منه منحهم إياها دون ذكر هويتي ولكنهم رفضوها فالأم لا تقبل إحساناً من أحد كما قال ولهذا كانت تخرج وأبنتها للعمل .. انقطعت صلتي به بعد فترة .. أحياناً أنصب محاكمة لنفسي .. أقاضيها بقسوة .. أنا الشاهد على نفسي والجلاد والقاضى .. أصدر حكمي بقسوة من أول جلسة .. وأحياناً أدافع عن نفسي .. تأخيرهم في علاج الحالة كان سبباً مباشراً في تدهورها وعدم القدرة على علاجها .. ما زال صراع البراءة والذنب يشتعل بداخلي .. أكتب قصتي على الورق وأتمنى لو كان ينطق فيحكم على حالتي .. بحكم عملي كطبيب أعلم أن ألم الجروح يزول بعد فترة و لم أدرك أن جروح الضمير لا يزيدها الزمن إلا إيلاماً .. ما زالت صور الطفل المفارق للحياة تحل كثيرا ضيفاً ثقيلاً على ذاكرتي دون موعد وتأبى أن تفارقنى .. كمريض بالصرع لا يرجى شفاؤه، تنتابني من وقتها كثير من نوبات الذنب والندم بشكل مفاجئ فتعصف بكياني .. ما يقلقني أني تزوجت متأخراً وأنجبت طفلان .. أدخل غرفة نومهما كل مساء بعد عودتي من العمل لأطمئن عليهما .. لا أتصور أن أفقد أحد منهما .. أتخيل أحياناً أني لم أعاقب على فعلتي وربما يأتيني العقاب في طفلاي .. أكاد أجن عندما تراودني تلك الخواطر .. تقتحم حياتي طوال الوقت وتقضي على هدوئي .. ليس هناك أسوأ من أن تقضى حياتك في حالة انتظار مزمنة لعقاب عادل قد يأت في أي لحظة ..

لا أعرف لحالتي علاجاً مؤقتاً سوى الكي بالألم .. أعيش مطارداً بالندم .. والندم ذئب جشع لا يرحم لا تزيده مرور السنوات إلا خبرة في إحكام خناقه على فريسته .. لم أنجح طوال تلك السنوات في التكفير عن أثمى ولكني نجحت بجدارة في أن أتعذب به .. أتعذب بذنب أحاول عبثاً التعايش معه منذ ثلاثة وعشرون عاماً بلا جدوى

صورة

زرنا صديقنا محمود في مكتبه لتهنئته بمنصبه الجديد، لم يتغير مكتبه القديم رغم الترقية .. رحب بنا بحرارة وقضينا بضع دقائق نتبادل الحديث في عدة موضوعات مختلفة قبل أن يتناهى إلى سمعي صوت طرقات على الباب .. يبدو أن صاحبي لم ينتبه لأنه واصل الكلام دون توقف .. بعدها بثوان عاد الطرق مرة أخرى .. لأول مرة أدرك أن صديقي ثقيل السمع .. التفت إليه لألفت نظره أن هناك أحد بالباب ربما يستأذن في الدخول .. لوح بذراعيه دون مبالاة ولم يعلق .. ولكن عندما قطع حديثنا للمرة الثالثة صوت تلك الطرقات الخفيفة نهضت وفتحت الباب لأتفاجئ بعدم وجود أحد .. الردهة الطويلة أمام المكتب خالية تماماً .. أخرج صديقي علبة سجائرة وأشعل واحدة بهدوء ثم استرخى في مقعده .. سألته بتعجب وأنا أشير إلى الطرقة الخالية:

- أين ذهب الطارق؟

أجابني بلا اكتراث: دعك منه .. ربما فتحي الفراش .. تلك طرقته المميزة

لم يفوت صديقنا الفرصة .. سأله مازحاً: وهل اعتاد أن يطرق الباب ثم يهرب كالأطفال؟

- ربما أصابه الملل فانصرف .. أو ربما غضب قليلاً لأني أتجاهله كالعادة .. لا تقلق سيعود لاحقاً .. و لن أفتح له

سألته بتعجب : تتجاهله عمداً إذن .. لماذا .. ؟

قال دون اهتمام : لهذا قصة طويلة

أثارت كلماته فضولي، قلت مازحاً: يبدو أن بالموضوع سراً ما تحاول جاهداً أن تخفيه

ضحك صديقى قائلاً: لا يوجد أسرار .. ولكني لا أريد تضييع وقتكما سدى في قصة لا تستحق

أجبته وأنا أعاود الجلوس على مقعدي: طالما ليس بالموضوع سراً فأحكي إذن .. على الأقل نعرف لما طرق الباب وهرب

سكت قليلاً، ثم قال باستسلام بعد برهه: حسناً .. ولكني حذرتكما أنها حكاية مملة لا تستحق

أطفئ سيجارته ثم قال:

عم فتحي أقدم عامل هنا .. استلم عمله من أول يوم أنشأنا فيه المجلة .. الجندي المجهول كما يقولون .. نشيط دائماً لا يركن للراحة ولا يستقر في مكان .. لم يكن فراشاً فقط .. بل أيضاً عامل النظافة وحارس الأمن وسكرتير أحياناً .. مجلتنا في بداية عهدها لم تكن مشهورة وميزانياتها محدودة للغاية ولهذا قام بكل تلك الوظائف راضياً .. اعتاد أن يأت في الصباح مبكراً قبل أي أحد .. ينظف المكاتب ثم يتجه إلى المطبخ .. بمجرد أن يضع الماء ليغلي حتى يتوافد المحررين .. يعد المشروبات طوال اليوم .. يستقبل أحياناً الزوار ويدلهم على المكاتب .. يصلح أي شئ مكسور .. ويرد على التليفونات عندما تكون السكرتيرة الوحيدة لدينا مشغولة أو متأخرة كعادتها .. هو أول من وقعت عيناي عليه عندما جئت إلى هنا .. مجرد محرر مبتدئ وقتها .. كنا نحسده على ذاكرته القوية .. لا ينسى شيئاً .. يحفظ عادات كل شخص .. في الثامنة صباحاً يحضر لي قهوتي المعتادة .. وبعدها بساعتان تماماً يجلب لي كوب القهوة الثاني دون أن أطلب منه بعد أن عرف عاداتي .. مواعيده دقيقة تستطيع أن تضبط ساعتك عليها .. بمرور الوقت بدأت المجلة تنتشر تدريجياً ويزداد عدد المحررين فاكتفي بعمل الفراش بعد أن أحضرنا عاملة نظافة تساعده بعد الظهر

أتذكر أول مرة خرجت فيها المجلة للنور .. أعطيته نسخة من أول عدد نصدره فظل يحتفظ بها بحرص داخل درج خاص في المطبخ .. ورغم أنه لا يقرأ لكنه ظل يتطلع للصور بشغف .. يخرج المجلة في أوقات فراغه ويقلب في صفحاتها بحثاً عن الصور ويطالعها بتركيز ويسرح مع أفكاره .. بدأ يطلب نسخة من كل عدد نصدره ليطالع الصور .. لا أعلم سر هوايته الغريبة تلك ولكنه كان شغوفاً بها بشدة .. بعد ثلاث سنوات من عملي هنا ترقيت وأصبحت كبير المحررين .. زادت أواصر الصداقة بيني وبين عم فتحي خاصة أنه كان يسهر معي أحياناً لإنجاز أعمالي المتأخرة .. وعندما أصاب أحياناً بالإرهاق من العمل، يجلس ليسلينى و يحكي لى قصص من حياته

ذات صباح أتذكره جيداً .. جاء يطرق على الباب كعادته .. كنت مشغولاً بكتابة مقال فلم أرفع عيني عن الأوراق .. ظل متريثاً أمامي دون أن يصدر عنه أي صوت حتى

انتهيت .. عندما رفعت عيني ابتسم بتردد .. ألقيت نظارتي وفركت عيني وأنا أسأله بهدوءعن سبب انتظاره بتلك الصورة .. سكت قليلاً ثم أجابني بخجل أنه يريدني في طلب شخصي .. توقعت أنه يرغب في اقتراض بعض المال رغم أنه لم يفعلها من قبل .. ابتسمت لأشجعه على الكلام .. أطرق إلى الأرض .. تهدج صوته قليلاً وهو يردد:

- أريد منك معروفاً لن أنساه طوال عمري

سكت قليلاً .. بلع ريقه بصعوبة .. تلعثم وهو يكمل بابتسامة مرتبكة: أريدك أن تنشر صورتي في الجريدة

تمالكت نفسي بصعوبة حتى لا أضحك .. لو رأيت تلك النظرة الطفولية على وجهه وقتها لضحكت .. ملامحه في منتهي البراءة والجد في آن واحد .. سألته برفق:

- لماذا تريد أن تنشر صورتك؟

أجاب بعدة إجابات كلها تدل على السذاجة .. أخبرني أنه يحب الصور ويحلم أن يرى ولو صورة صغيرة له في المجلة حتى يريها لأصدقائه، ويحتفظ بها بعد أن يتباهى بها أمامهم .. لم أشأ أن أصدمه بصعوبة الأمر .. الطريقة الوحيدة لأنشر صورة له هو بعد عمر طويل في صفحة الوفيات .. رأيته ينظر نحوي وهو يتطلع بلهفة لردي .. تملمت في مقعدي .. فكرت فعلاً بجدية في أمره .. رغم سهولة طلبه ولكن صعب أن أنشر له صورة في أي قسم من أقسام الجريدة .. الصفحات الأولى مخصصة بالطبع للأحداث السياسية البعيد هو عنها تماماً ولا يرغب بالاقتراب منها .. صفحات المجتمع لا تهتم سوى بأخبار الفنانين والمشاهير .. استبعدت صفحة الرياضة بالطبع فالرياضة الوحيدة التي يجيدها هي ركوب دراجته القديمة للعمل .. ربما في قسم الحوادث .. ولكنه لم يرتكب أي جريمة تستحق سوى أنه دخن مرة واحدة فقط في شبابه كما حكي لي تحت ضغط زملائه وأقلع بعدها .. لم أجد حلاً وأشفقت أن أرفض طلبه بشكل مباشر فأؤذى مشاعره .. وعدته أن أفكر في الأمر .. تهلل وجهه بسعادة وانصرف وهو يكاد يطير فرحاً

وبالطبع صدر العدد التالي من المجلة ولم تظهر صورته فيه .. جاءني منكسراً .. أشفقت عليه .. لم أجد عذراً يمكن أن يقبله برضا دون أن أخيب أمله .. اضطررت أن أصارحه برفق وأوضح له صعوبة الموقف .. أخبرته بوضوح أنه لا بد من وجود

سبب مقنع لنشر الصورة .. كأن يكون مشهوراً مثلاً .. أو صاحب قضية تهم الرأي العام .. أو حتى صاحب تجارب حياتية مميزة أستطيع نشرها ليستفيد منها القارئ .. عندما انهيت كلامي سكت فتحي قليلاً .. فكر لثوان ثم ابتسم وهتف بتلقائية:

- أنشر قصة حياتي إذن

تلك المرة لم أتمالك نفسي فضحكت .. ويبدو أنه فسر ذلك على أنه استحسان لفكرته، فبدأ يتكلم عن أحداث من حياته الجوفاء ويستفيض في رواية ما مر به .. أدركت وقتها أنه لا فائدة من محاولة إقناعه .. جلست على المقعد باستسلام وأسندت رأسي علي يدي استمع بصبر لحكايته التي يرويها لي للمرة العاشرة

انتابتني فكرة وقتها .. لما لا أكتب قصة قصيرة استلهم أحداثها من واقع حياته وأنشرها في قسم الأدب .. على الأقل سيفرح بنشر قصة تحكي عنه ولن يعاود التفكير في موضوع الصورة .. بدأت أنتبه أكثر وهو يحكي .. ولكن لخيبة أملي لم أجد أي شئ مميز يمكنني التوقف عنده .. حياة جوفاء .. مثال حي لحياة روتينية .. أرض مسطحة لا انحناءات فيها ولا ارتفاعات .. أبوه كان ساعي بريد بسيط وتوفيت أمه وهو صغير .. لم يتعلم القراءة أو الكتابة .. عمل كصبي بائع لفترة طويلة قبل أن يغلق المحل الذي يعمل فيه لوفاة صاحبه فانتقل للعمل كنادل في مقهى شعبي .. لم يعجبه العمل فتركه وتنقل بين عدة وظائف بسيطة قبل أن يستقر به المقام للعمل في جريدتنا .. يقضي طوال فترة الصباح هنا وينهي عمله مساءاً فيتوجه إلى المقهي ليقضي بعض الوقت مع شلة من جيرانه ثم يعود لمنزله المتواضع وينام للصباح .. يسهر فقط قليلاً يوم الخميس على المقهى .. وأحياناً يزور قريبة له مسنة تسكن في مدينة أخرى .. تلك هي حياته تقريباً دون اختصار .. حياة تسير على قضبان ثابتة كقضبان السكة الحديد .. لم ينحرف يوماً أو يحيد عن الطريق .. يقطع نفس المحطات يومياً .. وينتهي دائماً عند النقطة التي بدأ منها .. كيف يمكنني أن أضع حياة كتلك في قصة أدبية مشوقة تثير القارئ .. قصته خالية من أي أحداث مثيرة ومحبطة لأي كاتب يود صياغتها

قاطعت صديقي: ولكن في داخل كل منا قصة تستحق النشر .. هذا ما يردده الأدباء ..

هز صديقي رأسه ثم قال: كلام نظري لا ينطبق على كثير من الناس ومنهم عم فتحي .. ماذا أكتب عنه .. يستيقظ صباحاً ويقضي اليوم في العمل ثم يذهب لمنزله للنوم ..

حتى أحلامه بسيطة ولا يملك طموحات كبيرة .. إلا حلمه بالطبع بنشر صورته .. لم يحلم أن يتزوج أو يكون له أولاد لضيق ذات اليد .. وطموحه لا يتعدى أن يحافظ على عمله كفراش .. ليس له مغامرات .. أو حتى مشاريع خاصة يود تنفيذها .. من سيستمتع بقراءة أحداث كتلك ..

على العموم وعدته بإعادة النظر في الموضوع .. قررت أن أتركه عدة أيام لعله ينسى الأمر ولكن مع مرور الأيام زاد هوسه .. عندما نشرنا العدد التالي ولم يجد صورته جاء ليعاتبني .. لمحت نظرة انكسار في عينيه .. لم أره محبطاً من قبل بهذا الشكل .. وبعد صدور عدد آخر دخل المكتب يحمل القهوة بيد وبيده الأخرى يطبق على نسخة من المجلة .. بسط المجلة أمامي وأشار إلى صورتان لاثنان يبدو من هيئتهما أنهما بسطاء .. سألني بعتاب لماذا لم أنشر صورته مثلهما فلا يبدو عليهما أنهما من المشاهير أو نجوم المجتمع .. تصفحت المجلة بهدوء .. الصورة الأولى لشخص مريض نشرنا التماس لوزير الصحة لعلاجه في الخارج ومعها صورته .. والثاني تعرض للنصب فنشرنا قصته حتى نحذر الناس وبالطبع نشرنا صور المقابلة معه بعد أن تطوع بذلك .. حاولت أن أوضح له ذلك ولكن لم يبدو عليه الاقتناع .. لو كان يجيد القراءة لطلبت منه أن يقرأ المجلة ليتأكد من كلامي بدلاً من أن ينصرف ونظرة الشك تلك تظهر في عينيه بوضوح .. ورغم مرور الأيام وتجاهلي له، لم يفقد الأمل .. وعرفت لاحقاً أنه حاول مع عدد من الصحفيين هنا .. ولكنه قوبل بالاستهزاء منهم

مرت سنوات على مجلتنا .. تعرضنا للإغلاق والمصادرة عدة مرات .. وغادر عدد كبير من المحررين وحل محلهم عدد أكبر .. انتشرنا وتوسعنا .. جددنا ديكورات المكتب وغيرنا الأثاث .. أصدرنا المجلة في البداية شهرياً ثم أسبوعياً .. كل شئ تغير إلا إلحاح عم فتحي .. لم ييأس وظل يذكرني بطلبه على فترات متباعدة .. انتظر دوماً بأمل أن أحقق رجاءه رغم تجاهلي الدائم له الذي استمر لسنوات .. حتى تفاجئنا ذات صباح بغيابه

لأول مرة من اثنا عشر عاماً لا يحضر .. لم يغب يوماً من قبل .. اعتاد يومياً أن يكون أول من يصل لمقر المجلة وآخر من يغادر حتى أصبح جزءاً من المكان لا تألفه أعيننا بدونه .. وعندما تواصل غيابه لليوم الثاني أرسلنا مندوباً من المجلة للسؤال عنه .. عرفنا أنه مرض فجأة .. أصيب بالتهاب رئوي حاد ونقلوه للمستشفي .. لم يكن عم فتحي بالشخص قوي البنيان ولكنه لم يمرض قط .. وكأن الطبيعة أرادت أن تعوضه

عن ضعف بنيانه بمناعة قوية ضد المرض .. ولكن مناعته انهارت فجأة .. زاره بعض المحررين في المستشفى وكنت أنوي مشاركتهم الزيارة ولكني اضطررت للسفر لتغطية مؤتمر هام .. أحد الزملاء اتصل بي وأبلغني أنه سأل عني وكان يرغب في رؤيتي فصممت على زيارته بعد انتهاء المؤتمر .. ولكنه مات بعد عدة أيام .. لم يكن له أقارب هنا فتولت الجريدة كل شئ ودفن في أحد مقابر الفقراء .. ولأن المصائب لا تأتى فرادى .. صودرت جريدتنا بعد أن نشرنا تحقيقاً في قضية هامة رغم قرار النائب العام وقتها بحظر النشر في تلك القضية .. وعندما عاودنا النشر .. كان الوقت قد فات لنشر نعياً له .. مرت سنة الآن منذ وفاته وترقيت حتى أصبحت رئيس التحرير .. وجئنا بساعي جديد ليحل مكان عم فتحي .. هذه هي حكايته كلها .. كما ترون .. لا أستحق أن أكتب قصة عنها أو تحقيقاً وأنشرها

سكت قليلاً .. سألته بدهشة: و لماذا ظننت إذن أنه هو الطارق؟

ارتشف قليلاً من كوب القهوة أمامه .. قال كمن يتذكر شيئاً:

نسيت أن أقول لكم .. بعد عدة أيام من وفاة عم فتحي وقعت بضع حوادث غريبة في المجلة .. أناس تسمع صوت جلبة في المطبخ رغم أن لا أحد هناك .. أيضاً الفراش الجديد الذي عمل هنا أخبرنا أنه يلاحظ أصوات قادمة من المكاتب عندما يأت في الصباح .. وكأن شخصاً ينظفها .. وعندما يتحقق من الأمر يجد المكاتب خالية .. وبواب العمارة يؤكد أنه يرى أحياناً الأنوار مضاءة لفترات متأخرة في المساء حيث اعتاد عم فتحي السهر مع بعض المحررين الذين يمكثون لإنجاز أعمالهم المتاخرة رغم أنه لم يعد أحد يفعل ذلك الآن .. وبدأت أسمع صوت طرق على الباب في نفس الأوقات المنتظمة التي كان يقدم عم فتحي فيها قهوتي المعتادة .. نفس طرقته المميزة على الباب .. كتلك التي سمعتموها .. وعندما أفتح الباب لا أجد أثرا لأحد .. وبعض المحررين أيضاً حدث معهم الشئ نفسه .. وبالذات القدامى منهم .. واستمرت تلك الطرقات من يومها حتى الآن .. الغريب أن عم فتحي كان يحتفظ ببضع أعداد من المجلة في درج خاص داخل المطبخ .. أعداد خاصة ممتلئة بالصور أكثر ومنها العدد الأول للجريدة .. ولكنها اختفت كلها رغم أن الفراش الجديد رآها هناك أول يوم استلم فيه العمل هنا .. ولكنها اختفت بعدها .. كما أن بعض الصور المعلقة على الجدران تحطمت إطارتها .. فلم نعد نعلق أي صور على جدران المكان

توقف صديقى عن الكلام لبرهة .. خيم علينا الصمت .. نظر في ساعته قائلاً بسرعة: يبدو أن الوقت تأخر .. سأدعوكما للغذاء بمناسبة الترقية ..

نهض فخرجنا من مكتبه دون كلام .. كنت في حالة صدمة مما سمعت .. سرنا في الردهة الخالية تماماً .. يبدو أن معظم المحررين في استراحة غذاء أو أنهوا عملهم بالفعل فالمكان شبه خال .. اقتربنا من المطبخ .. تسمرت في مكاني عندما تناهى إلى سمعي صوت قادم من داخله .. نظرت لصديقى ولكنه أكمل طريقه بشكل طبيعي فسرت معه .. مع اقترابنا ازداد الصوت وضوحاً .. صوت مياه تغلي وكأن شخصاً يعد مشروباً ومعها صوت تقليب صفحات .. أشار صديقي إلى كرسي بجوار المطبخ تماماً:

- هنا اعتاد أن يجلس عم فتحي ينتظر إشارة أحد من الموظفين .. وهنا المخزن ..

ظل صديقي يتكلم ونحن نعبر أمام المطبخ .. لم أنتبه لأي من كلامه لأني كنت مشغولاً بمعرفة ما يدور داخل المطبخ .. بمجرد أن أصبحنا أمامه حتى التفتت ببطء لألقي نظرة سريعة بداخله .. لم يكن هناك أحد .. المكان خاوي تماماً والصوت توقف بمجرد أن عبرنا أمامه .. اقشعر بدني .. بمجرد أن تجاوزنا مدخل المطبخ حتى عاد الصوت مرة أخرى بوضوح .. سيطرت على نفسي بصعوبة .. سرت قشعريرة باردة في جسدي رغماً عني .. سرحت قليلاً قبل أن أنتبه على صوت صديقي مكملاً كلامه:

- كلما تذكرت عم فتحي شعرت بالشفقة نحوه .. حاولت أن أكتب عنه عدة مرات ولكني حتى الآن لم أجد أي شئ مميز في حياته ..

ثم تنهد وهو يلوح بيديه بيأس قائلاً: ليتني أجد أي شئ مثير في قصة حياته حقاً لأكتب عنه على الفور

بهجت

في بداية الثمانينيات لم يكن هناك في مدينتنا أشهر من محل بهجت .. ربما بسبب موقعه الممتاز في قلب المدينة التجاري أو بسبب ضخامة مساحته، أو لأنه الوحيد الذي يبيع الحلوى الجاهزة .. اعتدت أن أمر عليه في طريقي للمدرسة .. أتطلع بإعجاب إلى فاترينته المليئة بكل أشكال الحلوى .. لم أدخل المحل يوماً ولم أرى كثير من الزبائن يتوافدون عليه .. ولكنه يظل واحد من معالم مدينتنا الصغيرة حتى أن المنطقة المحيطة به أصبحت معروفة لدى الناس باسم المحل .. عندما تمر أحد عربات النقل العام أمام المكان يكفي أن يشير أحد الركاب "عند بهجت" أو " قبل بهجت" ليتوقف السائق هناك .. وعلى الرغم من أن المنطقة مليئة بمحلات أخرى من كل صنف ونوع .. لكننا لم نعرف للمنطقة هناك اسماً آخر

لم أرى أحد يعمل داخل المحل سوى صاحبه بهجت .. ولبهجت شخصية أكثر شهرة من محله نفسه .. رجل متوسط العمر طويل القامة ذو شعر خفيف بدأ يغزوه اللون الأبيض وعينان يشع منهما بريق ذكاء فطري .. ورث أرض كبيرة عن أبيه في مكان مميز في قلب المدينة التجاري بالإضافة إلى مزرعة صغيرة .. سافر للعمل في دولة عربية وعاد بعد عدة سنوات فبنى عمارة أنيقة على الأرض كانت مثار إعجاب الناس وقتها .. لم يكن يحب قيود الوظيفة أو يحتاج إليها .. قرر أن يبدأ مشروعاً فافتتح محل ضخم للحلويات أسفل منزله وأطلق عليه اسمه .. في الواقع لم يكن بهجت يهتم بالربح عندما افتتح مشروعه .. إيراد المزرعة بالإضافة إلى إيراد عمارته الجديدة وثلاث محلات أخرى صغيرة أسفلها وفر له دخلاً محترماً لم يعد معه بحاجة إلى حسابات الربح والخسارة .. ولكنه افتتح المحل ليشغل وقته، وعوضاً عن المكوث في المنزل .. كان أول محل للحلويات الغربية في مدينتنا التي لم تعتاد سوى الحلويات الشرقية المصنوعة محلياً .. ورغم نصائح أصدقائه وأقاربه بسذاجة فكرة إقامة محل كهذا في مدينتنا ذات الطابع الريفي .. إلا أنه أصر على استكمال المشروع قائلاً لهم ببساطة أنه لا يريد سوى أن يكون مختلفاً عن غيره، ولا يسعى إلا لكل ما هو جديد ومتميز .. وافتتح بهجت مشروعه الجديد بالفعل بهدوء وسط احتفال بسيط

في البداية لم يحقق بهجت نجاحاً يذكر تماماً كما توقع له الكثيرون .. ولكن مع مرورالوقت بدأ المحل يجذب الزبائن .. أناس دفعهم الفضول لتجريب منتج جديد بعيد عن الحلوى التقليدية .. صبر بهجت طويلاً على حلمه .. تطلع برضا إلى عدد الزبائن

الذي يزداد يوماً عن يوم وإن كان ما زال يسير بشكل بطئ .. مرت أسابيع وأشهر .. بعد ثلاث سنوات كاملة بدأ المحل يحقق ربحاً معقولاً بعد أن كان بالكاد يفي بمصاريفه .. كل من كان يلوم بهجت على فكرته الغريبة بدأ يشيد بذكائه ويتحدث عن بعد نظره .. ولكن ما كاد بهجت يلتقط أنفاسه ويحقق ربحاً حتى تفاجئ بافتتاح محل منافس .. بمجرد أن انتشرت الحلوى الغربية بين الناس حتى قلده أحد كبار تجار المدينة .. افتتح محلاً آخر في مكان مميز وبأسعار أقل .. ثم تبعه تاجر آخر بعده بعام في مدينة صغيرة لا تتحمل كل هذه المنافسة

أبرز ما في مدينتا الصغيرة أن الناس هنا تهوى تقليد كل ناجح .. تخشى من المغامرة وتهرب من الأفكار الجديدة ولكن بمجرد أن يغامر أحد وينجح حتى يسعى الجميع لتقليده بلا قيود .. وهذا ما عانى منه بهجت

لم يكد يحصد نجاح تجربته التي صابر عليها طويلاً حتى أرهقته المنافسة الشرسة .. لعدة سنوات أخرى ظل بهجت كما هو يتجاهل الوضع الذي يزداد سوءاً .. حتى أبي الذي اعتاد أن يبتاع من عنده بعض الحلوى في المناسبات توقف بعد أن اكتشف أن هناك محلات أخرى تبيع البضاعة نفسها بسعر أقل .. علمت لاحقاً أن بهجت بدأ يخسر من ولديه الذي كان أحدهما صديقاً لي في المدرسة بينما الآخر يصغرنا بعامين

في آخر سنوات دراستي الابتدائية مررت على المحل يوماً لأتفاجئ به مغلق .. لأول مرة من ست سنوات يوصد أبوابه .. بعدها بيومان رأيت بعض العمال يجهزون المحل .. سألت صديقي فأخبرني أن والده قرر تجديد المحل .. مر شهر ونصف قبل أن يعاد افتتاح المحل ليتحول إلى مجمع استهلاكي ضخم .. لم يكن تجديداً كما توقعنا .. بهجت غير نشاطه بالكامل

تحول محل الحلويات بالكامل ليصبح مجمع استهلاكي ضخم .. كنا في منتصف الثمانينيات واعتاد الناس هنا الشراء من الدكاكين الصغيرة .. لأول مرة في مدينتنا نرى كل تلك البضائع تجتمع تحت سقف واحد .. التجول داخل المحل أصبح متعة في حد ذاته فهنا تجد كل شئ .. وضح أن بهجت صرف على محله كثيراً لتجديده بل واضطر إلى توسعته بعد أن أضاف إليه أحد المحلات الثلاثة الصغيرة بجواره والتي كان يقوم بتأجيرها .. كسب بهجت الرهان وأثبت عبقريته مرة ثانية في اختيار مشاريعه .. عندما كنت أجئ إلى هنا مع أبي لم أكن أرى بهجت إلا وهو يتنقل من مكان لآخر يشرف على كل شئ بنفسه وابتسامة ثقة تعلو وجهه .. مرت شهور

وبهجت يحصد نجاح مشروعه .. بعدها عرفنا بالمصادفة أن تاجر كبير افتتح مجمع استهلاكي جديد في طرف المدينة .. تبعه ثالث ورابع داخل المدينة!

لم يمر وقت طويل بعد نجاح مشروع بهجت الثاني حتى تم تقليده فكان لدينا أربع مجمعات استهلاكية ضخمة تزحف على مدينتنا التي لا تستوعب كل هذا العدد، وكل ذلك خلال سنوات قليلة فقط .. سحبت المجمعات الجديدة البساط قليلاً من تحت أرجل بهجت خاصة أن أصحابها من التجار الكبار ممن يعرفون جيداً كيفية الحصول على البضائع بأرخص الأسعار بينما بهجت برغم أفكاره العظيمة لم يكن بتاجر .. بدأ توافد الزبائن عليه يقل تدريجياً وبدأ يقلل من عماله .. مشروعه الثاني صمد لمدة ست سنوات كاملة أيضاً قبل أن يحقق خسائر دفعت بهجت للتفكير في نشاط آخر مختلف

وعاد العمال مرة أخرى .. وبدأت أعمال الإحلال والتجديد التي طالت هذه المرة لشهر كامل .. قبل أن يخرج المحل بشكل جديد تماماً لم تعتاده مدينتنا المحافظة .. محل فيديو جيم للأطفال

كنا في بداية التسعينيات يوم ولادة المحل الجديد الذي لاقى إقبالاً شديداً منا حتى أنه في أوقات الأعياد والمناسبات كان علينا أن نذهب مبكراً ونحجز قبلها بساعات لضمان الحصول على فرصة للعب .. أمتلأ المحل بأحدث شاشات الفيديو جيم ولم تعد تسمع هنا سوى صوت طلقات الرصاص أو فرملة السيارات أو تقارع الأسلحة وموسيقى الألعاب المختلفة .. بالطبع هاجمه كثيرون بداعي أنه يفسد أخلاق الأطفال ولكننا كنا نستمتع للغاية بوقتنا هنا .. بهجت نفسه كان يغلق محله في الفترة الصباحية بعد أن حرص عدد كبير من الطلاب على الهروب من مدارسهم وقضاء الوقت في محله .. واظبت على المجئ هنا بشكل دوري في نهاية كل أسبوع مع أصدقائي بعد أن اعتدت إدخار مصروفي لثلاثة أيام كاملة قبلها حتى أتمكن من اللعب .. كان ذلك قبل أن يفتتح محل مشابه قريب من المنطقة التي نسكن فيها ففضلنا الذهاب إليه .. تلك المرة ومع بدء انطلاقنا في عصر السرعة لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لسرقة فكرة مشروع بهجت الجديد .. بعد عامين انتشرت محلات الفيديو جيم الصغيرة في المدينة الضئيلة ولم يلبث بهجت أن قرر إغلاق محله كالعادة

انتظرت – ومعي الكثير من الفضوليين والتجار – مشروع بهجت الجديد .. فكرته القادمة بعد أن أثبت في كل مرة قدرته على قراءة السوق والخروج بأفكار مبتكرة غير تقليدية .. لم يحتاج المحل تلك المرة لتغيير كبير .. بقيت ديكورات المحل كما

هي ولم تتغير سوى اللافتة وبعض الأجهزة لتعلن عن ميلاد مكتب بهجت للكتابة والطباعة بالكمبيوتر .. كنا قد اقتربنا من منتصف التسعينيات وما زالت آلات الطباعة التقليدية منتشرة في المدينة العتيقة .. اجتذب المكتب العديد من طلاب الجامعات بالإضافة إلى أصحاب الأعمال والباحثين .. المكتب الوحيد الذي تجتمع فيه كل الخدمات الحديثة في مكان واحد .. فاكس وكمبيوتر وآلات طباعة حديثة وهاتف دولي أيضاً .. بإمكان أي عميل أن يكتب ويطبع هنا أي أوراق يريدها بسرعة .. وظف بهجت عدداً من السكرتيرات امتزن بالكتابة بسرعة على الكمبيوتر .. بالإضافة إلى إنشاء قسم خاص داخل المكتب للدعاية والإعلان بأحدث الوسائل .. اشترى أحدث ماكينات نسخ الأوراق وأفضل آلات الطباعة .. في الانتخابات التي أقيمت بعدها بسنة كانت معظم اللافتات وأوراق الدعاية المبهرة التي أغرقت المدينة ممهورة باسم مكتبه .. لفترة لم يستطع أحد تقليد مشروع بهجت خاصة من التجار الكبار الذين كان فهمهم للتكنولوجيا الحديثة محدوداً إلى أبعد حد .. ظننا أن هذا سيكون آخر مشاريع بهجت ويبدو أنه هو نفسه اطمئن لنفس الخاطر فصرف على مكتبه بسخاء .. إلا أن أحد شباب الجامعة المتحمس أعجب بالفكرة .. اتفق مع بعض أصدقائه فقاموا بتأجير مكتبة كبيرة أمام الجامعة مباشرة واشتروا عدداً من أجهزة الكمبيوتر والطابعات بالتقسيط وبدءوا بالعمل .. خبرتهم في التعامل مع التكنولوجيا الحديثة فاقت خبرة بهجت بالتأكيد ولم يلبث أن ازدهر عملهم .. بالطبع اجتذب المحل الجديد طلاب الجامعة الذين فضلوه في النهاية نظراً لقربه من الجامعة، وبعد المسافة بين وسط البلد حيث محل بهجت وبين كلياتهم .. ثم انتقلت الفكرة لشاب آخر فافتتح مكتبة آخرى .. كان يمكن لبهجت أن يصمد أمام المنافسة التي ما زالت في بدايتها ولكنه فضل أن يستسلم بشكل سريع وغير متوقع وأغلق محله بعد أن باع الأجهزة كلها

تجاوزنا منتصف التسعينيات واقتربنا من نهاية الألفية .. التحقت بالجامعة وبهجت يجدد محله للمرة الخامسة .. هذه المرة لاحظنا أن الفاترينات رجعت لتحتل واجهة المحل .. أيقن الناس أن بهجت سيعود لبيع الحلوى .. نشاطه الأول .. ولكنه فاجئ الجميع بعمل افتتاح ضخم ليعلن إقامة أول محل للهواتف المتحركة .. اتهمه البعض بالجنون والبعض كان رحيماً به فاكتفوا باتهامه بالسذاجة .. عدد من يحملون الهواتف المتحركة في بلدنا لم يكن يتعدى أصابع اليدين .. سمعنا كثيراً عن تلك الأجهزة دون أن نراها أو نحلم بامتلاكها .. في مدينتنا المعدمة من يقدر على شراء الجهاز باهظ الثمن أو تحمل قيمة مكالماته .. نصف الناس هنا لا يحلمون سوى بامتلاك هاتف

أرضي وربما انتظروا لشهور وقتها في سبيل تحقيق ذلك .. تحمل بهجت لمدة عامين تقريع الناس والجلوس داخل محله الخاوي تقريباً من الزبائن إلا من قلة معدودة من الموسرين .. تحمل أن يجلس أحياناً يوماً كاملاً دون أن يطالعه وجه زبون حتى بدأت التكنولوجيا الجديدة تغزو العقول قبل السوق .. انتشر الموبايل تدريجياً في أيدي الناس بعد عدة عروض من الشركات المتنافسة لتخفيض سعره وبات للمحل زبائن .. المحل الوحيد الذي تباع فيه الأجهزة وكروت الشحن وكافة مستلزمات الاختراع العجيب .. بل وحتى عمل صيانة بعد أن تعلم بهجت كيفية صيانة أجهزة المحمول مستغلاً فترة فراغ محله من الزبائن .. ولفترة ليست بالقصيرة حقق بهجت أرباحاً لم يحققها أي مشروع له من قبل، وظل محتكراً للسوق الجديدة لفترة لا بأس بها قبل أن يقبل على المجال بعض الشباب المغامر وبعض التجار الكبار الذين استطاعوا بذكاء الحصول على توكيلات رسمية من شركات المحمول .. انتشرت المحلات الصغيرة والكبيرة بعدها كالوباء في كل أرجاء المدينة وقل عدد زبائنه .. وقبل أن يبدأ بالخسارة قام بهجت بتصفية محله مجدداً

في بدايات القرن الجديد ومع أولى سنوات الألفية تخرجت من الجامعة واستلمت أول عمل لي وتحول نشاط بهجت من الهواتف المتحركة إلى بيع وشراء أجهزة الكمبيوتر .. لم أكن أحلم بامتلاك جهاز كمبيوتر وقتها نظراً لثمنه الغالي ولكن بعد تخرجي بثلاث سنوات أصبح الجهاز في كل بيت .. تجمع لدي مبلغ من المال فقررت شراء جهاز وكنت قد عزمت على الشراء من بهجت .. ولكن أصدقائي دلوني على محل افتتح بعده يبيع الأجهزة بسعر أرخص فاشتربت منه

سافرت للعاصمة للعمل ولم أكن أعود إلا في أجازات قصيرة ولكنها كانت كافية لأتابع محل بهجت يتحول إلى مقهي إنترنت ثم إلى صيدلية أعشاب وأخيراً إلى توكيل أجهزة تكييف وفي كل مرة يواجه بهجت المتجدد دائماً والذي يضيق من المنافسة المصير نفسه .. يبدأ الفكرة والشرارة الأولى في مدينتنا فتنتشر وينفذها غيره بشكل أفضل بعد أن يتحمل هو خسائر المخاطرة

مع نهاية العقد الأول من الألفية حصلت على عقد عمل في أحد الدول العربية .. سافرت وشغلتني دوامة الغربة قبل أن أقرر العودة أنا وزوجتي نهائياً لأستقر في بلدي بعدها بخمس سنوات .. ذهبت إلى مدينتي وسرت في شوارعها أتفقد كل ركن فيها وأستعيد ذكرياتي .. قابلت بعض أصدقائي ومنهم محمود ابن بهجت الأكبر .. مررنا

على محل بهجت الذي كان مغلقاً وقبل أن أسأل محمود عن سر إغلاقه وقع بصري على لافتة كبيرة مكتوب عليها " الافتتاح قريباً " فكتمت فضولي منتظراً معرفة أخبار المشروع الجديد في حينه

وضعت زوجتي طفلنا الأول بعد عودتنا بشهر .. شغلني قدومه عن الدنيا .. زارني محمود وتلقيت تهنئته ولكني نسيت أن أسأله عن مشروع والده .. ذهبت بعدها بعدة أيام لشراء بعض الأغراض من وسط البلد فطالعني المحل بثوبه الجديد .. لم أصدق .. كان هذا آخر ما أتوقعه .. أعترف أني توقعت شئ مختلف .. مجال جديد يغزوه بهجت .. أن يبهرنا بفكرة مبتكرة كالعادة .. لكني تفاجئت بما انتهى إليه المحل .. مجرد مكتبة عادية لبيع الكتب .. أرفف ممتلئة بكتب حديثة ومجلدات ضخمة وكتب أطفال بالإضافة إلى ركن خاص شغل نصف مساحة المحل تقريباً لبيع الكتب المستعملة .. أتذكر أنه كان لدينا في المدينة قديماً عدد من المكتبات التقليدية مثلها لبيع الكتب ولكنها أغلقت أبوابها من فترة ليست بالقصيرة .. وأصبحت الكتب الآن تباع على الأرصفة .. رأيت بهجت بعد أن تعدى عمره الستين وهو يجلس بهدوء خلف مكتب بسيط تعلوه بعض الكتب يطالع واحد منها .. عندما قابلت محمود بعد عدة أيام سألته عن سر التغيير الجديد .. سرد لى بخيبة أمل كيف حاول الكثيرون إقناع والده بالعدول عن فكرة المشروع .. بل هاجمه البعض ومن بينهم ولديه .. حاولوا إقناعه كثيراً بمدى حماقة الفكرة .. واجهوه بكل الحجج المنطقية .. " تبيع كتب لناس مش لاقيه تاكل " .. " مين اللى بيقرأ دلوقتي في الزمن ده، حد عنده وقت للقراءة " .. " أقل كتاب جديد تمنه يوكل أسرة فقيرة يومين بحالهم .. وبعدين الناس دلوقتي بتقدر تنزل من النت أي كتاب وتقراه ببلاش .. مين عنده استعداد يرمي فلوسه في شوية ورق " .. " حتى المكتبات القليلة اللى كانت موجودة هنا قفلت من زمان .. والكتب بتتباع على الأرصفة دلوقتي ومش لاقية اللي يشتريها"

عرفت أنه استمع بصبر إلى معظم تلك التعليقات ولكنه أصر على موقفه .. نفذ فكرته ولم يتراجع دون أن يفهم أحد سر تمسكه بها مما دفع البعض للظن أنه أصابه الخرف بسبب سنه

مرت عشر سنوات .. الآن وصل ابني الأكبر إلى نهاية مرحلته الابتدائية .. وأنجبت طفلاً آخر .. بدأ الشيب يغزو رأسي ولم يغير بهجت مشروعه .. أطول مدة لبثها مشروع له .. ما زال محل الكتب كما هو .. المحل الوحيد في مدينتنا الصغيرة ..

عندما تمر عليه ترى رجلاً عجوزاً تعدى السبعين من عمره .. غزا الشيب ما تبقى من شعره .. يرتدى نظارة طبية ذات عدسات سميكة ولكنه ما زال محتفظاً بحيويته .. يجلس بهدوء يومياً أمام أرفف الكتب داخل مكتبته ترتسم على وجهه ابتسامة رضا لا تخطئها العين .. أعتقد أن بهجت أثبت للمرة الأخيرة بعد نظره .. مرت أكثر من عشر سنوات على افتتاح المكتبة ورغم مرور كل تلك المدة لم يحاول أحد تقليده أو افتتاح مشروع مشابه له .. ولا أتوقع أن يقلده أحد مستقبلاً .. بضاعته الراكدة عند الناس لا تشجع أحداً على الخوض في مخاطرة مشابهة .. وبرغم أرباحه القليلة وزبائنه المعدودين الذين يتناقصون سنوياً .. لكن الأمر المؤكد أن بهجت يشعر بالرضا؛ لأول مرة طوال حياته يفتتح مشروعاً لا يزاحمه فيه أحد .. مشروع لم يعد يخشى معه أخيراً من أي تقليد أو منافسة محتملة في المستقبل

سيد النصاب

جلست مع صديقي على المقهي نتبادل الحديث .. لم أره من فترة نظراً لسفرى للخارج فطالت جلستنا .. تبادلنا المزاح ولم أسلم من ثرثرته المعتادة قبل أن يتوقف فجأة عن الكلام .. لاحظت أنه ينظر باهتمام إلى نقطة ما خلف ظهري .. التفت فوقعت عيناي على رجل دخل للمقهي لتوه .. رجل في الخمسينات من عمره يرتدي ثياب فاخرة جلس غير بعيداً عنا مع صديق ينتظره وطلب شيشة دخنها بهدوء بمجرد أن جاء بها النادل .. لم يكن في شكله ما يثير الريبة .. التفت لصديقي قائلاً: يبدو أنك تعرفه جيداً

أجابني بسرعة: نعم .. سيد النصاب .. ومن لا يعرفه

سألته مازحاً: سيد النصاب .. وهل هذا لقب أم اسم لعائلته

أجابني بجد: بل لقبه .. نصب بالفعل على كثير من الناس هنا

تملكتني الدهشة .. سألته بتعجب: لما لم يلقوا القبض عليه إذن؟

تنهد قائلاً: ربما لأنه لم ينصب على أحد كما تتخيل

قبل أن أعلق على هذا اللغز قاطعني صديقي مكملاً كلامه : لو سمعت حكايته لفهمت

لم يوضح الأمر .. تملكني الفضول فسألته: وما هي حكايته؟

سكت قليلاً .. ثم ابتسم قائلاً: حسناً .. سأحكيها لك ولكن لا تواصل النظر خلفك تجاهه بهذا الشكل المثير للريبة

اعتدلت في مكاني .. ارتشف صديقي من كوب القهوة الموضوع أمامه .. قبل أن يحكي بنبرة هادئة وبصوت تعمد أن لا يكون عالياً:

سيد شخصية عجيبة .. صحيح أنه نصب على كثير من الناس .. ولكنه لم يستولي على نقود أحد .. تلاعب بالقانون ولكن لم يستطع رجال القانون توجيه أي اتهام له .. يمكنك أن تطلق عليه نصاباً .. ولكن أحذر أن يسمعك وإلا قاتلك مستميتاً على شرفه الذي لا يقبل أن يمسه أي أحد

سيد لم يكن مخادعاً .. لم يتورط من قبل في أي أمور تسئ لسمعته .. رغم تمتعه بذكاء غير عادي وقدرة هائلة على الإقناع ولكنه لم يستغلها يوماً في خداع أي شخص .. لم يكن ضميره يسمح له بذلك .. ولكن عندما حاصرته أزمة خانقة .. واضطرته الظروف للنصب .. قام بالأمر ببراعة يحسد عليها

طوال عمره ظل يحلم بالثراء .. امتلك عدد من الأفكار الجيدة حقاً التي فشل في تنفيذها نظراً لقلة موارده .. قبل الأزمة كان موظفاً مرموقاً في الخارجية يتمتع بسمعة طيبة .. شخصية مرحة يكتسب علاقات جديدة كل يوم ويعرض خدماته على الجميع ولا يتأخر عن مساعدة أحد .. نجح في تكوين دائرة علاقات قوية وساعد كل من يلجأ إليه .. لم يكن يتقاضى مقابل في سبيل خدماته .. مما أتاح له شهرة واسعة في محيط مدينته .. تقاعد من وظيفته مبكراً بعد أن عرض عليه صاحب أحد شركات المقاولات الخاصة وظيفة معه براتب مغرى بعد أن أعجب بذكائه .. لم يفكر كثيراً بعد أن رآها فرصة لتحقيق طموحاته.. عمل معه لمدة عامان قبل أن تفلس الشركة .. خرج خالي الوفاض ولكن بخبرة جيدة في السوق وأحلام كبيرة في رأسه .. لم يستطع العودة إلى وظيفته القديمة التي لم تعد ترضي طموحه .. ولم يبحث عن وظيفة مناسبة لن يجدها بعد أن تخطى الخمسين، خاصة في مدينتنا الصغيرة التي تعاني بالفعل من ارتفاع معدلات البطالة .. ظل فترة بلا عمل ولكنه لم يتوقف عن دراسة السوق ومتابعة أحواله .. عندما حاصرته الديون .. وأوشك بيته القديم على الانهيار .. لم يجد بداً من تنفيذ فكرة طالما روادته .. فكرة خطط لها طويلاً لتنقله إلى عالم الثراء

أنشأ شركة صغيرة لإلحاق العمالة بالخارج مستغلاً شهرته .. بدأ يقبل كل الطلبات دون طلب نقود من أي عميل .. استغل صلاته السابقة ونجح في توفير فرص عمل بالخارج لعدد من عملائه بالفعل .. مما زاد من شهرة مكتبه .. لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى أعلن أنه يريد عمال من جميع التخصصات للعمل في شركة مقاولات كبرى داخل دولة خليجية برواتب مجزية .. توافد على مكتبه الكثيرون .. كان يقابل كل راغب في السفر منهم بنفسه .. عمال نجارة .. سباكين .. سائقين .. عمال كهرباء .. نقاشين .. وعد الجميع بالشئ نفسه .. عقد عمل مغري براتب يسيل له اللعاب في دولة عربية غنية لشركة مقاولات كبيرة ولكنها ما زالت تحت التأسيس .. صاحبها خليجي ولديه شركة مقاولات عملاقة تمتلك فروعاً في كل البلاد العربية ومنها فرع هنا .. وعدهم بتوفير العقود خلال أشهر بسيطة بمجرد انتهاء إجراءات التأسيس للشركة الجديدة .. أوهم الجميع أن الفرص محدودة في حين أن أعداد المتقدمين كبيرة

.. طلب من كل عامل دفع جزء من ثمن العقد مقدماً .. والأولوية لمن يدفع أولاً .. لم يشكك أحد في كلامه .. تاريخه معروف ونزاهته ليست محل جدل .. دفع كثير من العمال .. واعتذر البعض .. ولكي يزيل أي شبهة شك تجاهه .. وقع إيصالات أمانة مقابل كل مبلغ استلمه

لا يعلم أحد كم جمع تحديداً .. و لكنه بالتأكيد مبلغ كبير .. باع بيته القديم الآيل للسقوط وكل ممتلكاته قبلها بعدة أسابيع .. ودفع مقدم لقطعة أرض كبيرة في مكان مميز كان يضعها نصب عينيه من فترة ثم استكمل شراء الأرض وسدد باقى ثمنها بعد أن تحصل على نقود عملائه .. وطبعاً تم كل هذا في الخفاء .. قدم بعدها مباشرة على قرض من بنك كبير يعمل به أحد أقاربه كعضو منتدب .. تمت الموافقة على القرض سريعاً بضمان الأرض التي تعلو قيمتها يومياً .. واستغل هو فترة انتهاء إجراءات القرض في الاتفاق مع أحد المكاتب الهندسية لتصميم برج إدارى ضخم .. واستخراج الرخص اللازمة

هززت رأسي وقاطعت صديقي قائلاً: فهمت .. استغل بجشع أحلام الشباب والعمال البسطاء في السفر للخارج لتوفير حياة أفضل لهم ولأسرهم، وجمع منهم النقود ثم ماطلهم .. بنى البرج وباع وحداته ثم صرف لكل عامل ما دفعه واعتذر لهم

ابتسم صديقي قائلاً : لا .. ما حدث أعجب بكثير

كان يمكن أن يتوقف عند هذا الحد .. ولكن الأغرب هو ما حدث لاحقاً .. أتصل بكل العمال وحدد موعد للقائهم في مكتبه .. في اليوم المحدد تكلم معهم بهدوء وثقة عن الكفيل الذي بصدد القيام بمشروع جديد ولكن هذه المرة داخل البلاد .. مبنى إدارى ضخم تتولاه فرع شركته هنا .. أوهمهم أن الكفيل طلب منه الاتفاق معهم على العمل في مشروعه الجديد هنا أولاً .. مجرد فترة اختبار وفرصة عملية للكفيل للحكم على كفاءة كل عامل قبل سفره للخارج .. فشركاته تتمتع بسمعة طيبة ولا تقبل إلا كل عامل متميز .. وفي النهاية من ينجح في الاختبار يسافر فوراً .. ومن يفشل يعيد إليه نقوده في الحال .. أبلغهم أنه بالطبع لن يتم العمل دون مقابل .. بل على العكس سيحصل كل عامل على أجر أكبر من أجره المعتاد طوال فترة العمل في المشروع الجديد .. وربما يكسب ضعف أجره .. وعند الانتهاء من كلامه أبلغهم أنه ينتظر الرد سريعاً

لم يشكك أحد في كلامه .. تحمس البعض فوراً .. في النهاية لن يخسر أحد فسيعملون براتب كبير .. أكبر مما اعتادوا عليه .. وفرصة لكل عامل لإظهار مدى براعته للكفيل أملاً في اقتناص فرصة السفر الثمينة .. انتقل الحماس تدريجياً لباقي العمال أملاً في إثبات كفاءتهم والحصول على العقد الذي يترجم كل أحلامهم .. ولم ينسحب أي عامل .. ربما لأن انسحاب أحد معناه اعتراف ضمني أمام الجميع بعدم كفاءته وخوفه من خوض الاختبار .. تم الأمر كما توقع بعد أن لعب بذكاء على الوتر الحساس .. وتر إذكاء أحلامهم البسيطة .. ولم يضيع هو وقته فواصل استخراج التصاريح اللازمة بالطرق المباشرة وغير المباشرة .. ووفر كل المعدات اللازمة لمشروعه .. واتفق قبلها مع الشركة المنفذة على كتمان هوية المالك

وبدأ العمل .. والعمال يبذلون أقصى طاقاتهم .. ويتقاضون أجرهم كاملاً مضاعفاً أحياناً .. وكل عامل يؤدي بحماس كبير ويظهر كل إمكانياته .. وانتهى الحفر وصب الأساسات في وقت قياسي .. وبعد شهرين بدأ برج كبير في الظهور للحياة .. وأحضر سيد عمالاً أكثر .. ووضع كل عامل خبرته وعلمه وهو يمني نفسه بالعقد المغري .. حتى في أوقات الراحة كانوا يتكلمون عن حلم السفر والعقد المنتظر .. لم يتأخر عامل يوماً أو يتقاعس في إداء مهامه .. وأظهروا إخلاصاً لم يظهروه طوال عمرهم .. وخصوصاً أمام المهندس المشرف على المشروع عندما اعتقدوا أنه هو من يراقبهم ويحكم عليهم .. وزاد من حماسهم ظهور سيد في موقع العمل يوماً بصحبة رجل مسن وقور يرتدى زياً خليجياً ويستقل سيارة فارهة .. وتهامسوا فيما بينهم أنه الكفيل .. وزادت أحلامهم برؤيته

شهور والعمل يستمر ليلاً ونهاراً بلا توقف .. وارتفع البرج شامخاً يبهر الأنظار .. وبدأت رحلة التشطيب وانتظر الجميع بفارغ الصبر انتهاء العمل للحصول على العقود .. ثلاث عمال فقط طوال فترة البناء اضطرتهم ظروفهم الخاصة للتراجع عن فكرة السفر .. ودفع سيد لكل منهم نقوده في الحال دون مماطلة .. مما طمأن الجميع على نزاهته

ولأن سيد أجاد اختيار موقع برجه في مكان مميز في قلب المدينة .. ولأن البناء كان حقاً تحفة معمارية أبدع فيها كل من عمل في بنائه .. لذا بمجرد أن أعلن عن بيع وحداته حتى تسابق كثيرون للشراء بالرغم من الأسعار الكبيرة التي فرضها .. وبيعت كل وحدات البرج بالكامل في وقت قصير

وحدث طبعاً ما هو متوقع .. اجتمع بالعمال وأخبرهم أن الكفيل يمر بأزمة مالية وأنه قرر تأجيل إنشاء فرع الشركة الجديد .. أبلغهم بأسفه لانتهاء الأمور على هذا الحد غير المتوقع .. وأسف الكفيل لاضطراره لإلغاء كافة إجراءات التعاقد معهم والتي كان بدأها بالفعل نظراً للظروف الطارئة التي يمر بها وتخرج عن إرادته .. ومنح كل عامل مقدم عقده مع وعد خاص بمواصلة سعيه لإيجاد عقود بديلة لهم

وجدت نفسي أسأل صديقي بدهشة: وكيف لم يثور العمال ضده بعد علمهم بحقيقته؟

أجابني بسرعة: لم يكونوا على علم وقتها أنه صاحب البرج .. أخفى الأمر عن الجميع حتى عن زوجته وأبناؤه ..

سألته: والنيابة .. قلت لي أنهم لم يجدوا دليلاً ضده

قال بأسف: إجراءاته كلها كانت قانونية .. عندما افتضح أمره بعد عدة أشهر بأنه هو صاحب البرج تقدم بعض العمال ببلاغ ضده .. ولكن لم يكن هناك ثغرة لإدانته .. أوراق مكتبه لإلحاق العمالة بالخارج كانت سليمة .. النقود التي استلمها من العمال ردها إليهم دون نقص .. والإيصالات التي كتبها على نفسه بالطبع استردها .. حتى الأرض أثبت أنه اشتراها قبل الحصول على نقود العمال وهذا هو المهم لأنه نفى عن نفسه استغلاله لهذه النقود في أغراض شخصية .. والبناء تم بقرض البنك أي أنه لم يستخدم نقود عملائه في مشاريع خاصة يتربح منها

صحت بدهشة: وخداعه لهم بأنه ليس صاحب البرج الذي يشيد

أجاب بهدوء: لا يوجد نص في القانون يجبر أي شخص على إعلان ممتلكاته لأحد .. إلا لجهات قانونية محددة .. وبالتالي قيامه بإخفاء الأمر عن العمال ليس بجريمة يحاسب عليها .. كما أن العمال اعترفوا أنهم تحصلوا على أجورهم كاملة، بل وأكثر منها طوال فترة البناء .. أي أنه لم يستولي على حقوق أي أحد .. والأدهى أنه أثبت أنه وفر بالفعل لعدد من العمال عقود عمل لاحقة .. وهو ما تبين صحته وبالتالي نفى عن نفسه نية النصب .. ولا تنس أن الخلاف دب بين العمال أنفسهم

سألته : كيف؟

أجاب: استطاع أن يسوي أموره جيداً معهم .. قلت لك وفر لاحقاً لعدد منهم بالفعل عقود عمل .. ليست مغرية ولكنهم قبلوها .. ومنهم من أعطاه بعض المال للتنازل

وتغيير أقواله .. والبعض لم يذهب أصلاً ونسى الموضوع .. وكما قلت لك .. الأهم في الموضوع أنه لم يستولي على نقود أحد .. حصل فقط على مخالفة لطلبه من العمال مقدم عقود قبل توفير فرص العمل فالقانون يحرم على مكاتب السفر تحصيل أي نقود من أي عميل قبل توفير العقد .. وهي مخالفة إدارية .. ولا تهمه لأنه أغلق المكتب نهائياً بعدها بفترة .. على العموم هذا ما حدث من سنوات طويلة .. الآن أصبح من كبار رجال الأعمال في مدينتنا هنا .. ومشاريعه تتوسع يوماً عن آخر .. ولم يعد للنصب أبداً .. ونسى كثير من الناس بالفعل حكايته .. إلا البعض ومنهم أنا

التفت وحدقت في الرجل بغضب .. ضحك صديقي قائلاً: لا تنظر إليه هكذا .. من يدري .. ربما في يوم من الأيام بعد عودتك من الخارج تعمل في أحد شركاته .. أسمع أنه يمنح مرتبات جيدة .. ويشجع الشباب ويؤمن بهم ويمنح مزايا عديدة لمن يعمل معه صعب أن تجدها في أي مكان آخر.. ولكن إياك وقتها أن تذكره بماضيه

ضحكنا وأنا ألقي نظرة أخيرة إلى الرجل الجالس خلفي يدخن بهدوء

الفهرس

المجرم ١

استعداد ٥

الحارة ٨

دائرة الحرامية ١٥

حفلة عيد ميلاد ٢١

التحدي ٢٨

الواشي ٣١

الوحش ٣٧

الدور ٤٢

السيارة ٥٠

انتحار فاشل ٥٧

قضاء وقدر ٦٣

صورة ٧٥

بهجت ٨٢

سيد النصاب ٨٩